دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	المسؤولية: مفهومها ـ طبيعتها الفردية والاجتماعية وفق المنظور الإسلامي
المصدر:	مجلة القلم
الناشر:	جامعة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية
المؤلف الرئيسي:	الصرمي، أحمد رزق
المجلد/العدد:	ع3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	يونيو
الصفحات:	345 - 385
رقم MD:	937867
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المسؤولية، المسؤولية الشرعية، المسؤولية الأخلاقية، المسؤولية الاجتماعية، المسؤولية فى الإسلام
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/937867

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

المسؤولية: مفهومها ـ طبيعتها الفردية والاجتماعية وفق المنظور الإسلامي

د. أحمد رزق الصرمي

أستاذ الثقافة الإسلامية المساعد–مدير عام مكتب التربية والتعليم بمحافظة إب

ملخص البحث

سلك الباحث في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث حاول أن يفسر مفهوم المسؤولية بوصفه مفهوما ذات أبعاد فلسفية ـ أخلاقية ــ شرعية ـ من جانب، ومن حيث هو ضرورة فردية وإنسانية واجتماعية من جانب آخر، وقد حفلت الأدبيات والدراسات الدينية والفلسفية والفكرية والأخلاقية بجملة من القيم الأخلاقية ذات الطابع الفردي الالتزامي من جهة، والطابع الاجتماعي من جهة أخرى في كل حقب الحضارات الانسانية الكبرى بدءا من الفلسفات البوذية والكنفوشيسية واليونانية والتوراة والصحف والكتب الدينية القديمة، وصولا إلى كتاب الله عز وجل وهو القرآن الكريم مرورا بفلسفة الإسلام و وصول الفلسفات الغربية الحديثة، وما نجم عنها من القوانين والتشريعات الوصفية ذات الصلة بالمنظومة الأخلاقية بصفة عامة والمسئولة بصفة خاصة، وينحصر بحثنا على دراسة المسؤولية بكافة أبعادها ومنطلقاتها من المنظور الإسلامي حصريا.

وقد خلص البحث من خلال المطالب والنظرات التي تضمنها في صفحاته إلى العديد من الاستخلاصات والنتائج من أهمها:

١ـ المسؤولية في الإسلام منوطة بكل مسلم بالغ عاقل فهي مسئولية شخصية اجتماعية دينية وعلمية غير أنها جميعاً مسئولية أخلاقية لأن الأخلاق في الإسلام من الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

٢ ـ اقتضت حكمة الله سبحانه أن جعل الإنسان اجتماعياً بالضرورة أو كما قيل مدني بالطبع، مما أدى إلى اجتماع الناس بعضهم على بعض وتكوين مجتمعات بشرية.

٣ ـ المسئوليات أنواع: المسؤولية الدّينيّة، المسؤولية الاجتماعيّة، المسؤولية الأخلاقيّة.

٤ ــ والمسؤولية لها مستويات ثلاثة مترابطة ومتكاملة، وهي: المسؤولية الفردية الذاتية والمسؤولية الجماعية (المسؤولية الاجتماعية)، والمسؤولية السياسية.

٥ ـ وتتميز المسؤولية الاجتماعية في الإسلام بنظرة شمولية، فهي لا تركز على النواحي المادية فقط كما هو الحال بالنسبة للأنظمة المادية الوضعية، إنما تشمل سائر المناحي الأدبية والروحية من حب وتعاطف وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغيرها.

٦ ـ أن هناك حقوقا متبادلة بين الراعي والرعية، فلا ينبغي أن نهمل جانبا على حساب جانب آخر.

المقدمة

تتردد كلمة المسؤولية على ألسنة الناس بمختلف شرائحهم ومراتبهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، ولعل كثرة استعمالها اليوم يعود إلى القوانين التي انتشرت اليوم والتي أكثرت من التفريق بين المسؤولية المدنية والمسؤولية الجنائية، أو من جانب آخر بين المسؤولية الأدبية والمسؤولية القانونية، بوصفها أحد مدخلات الفكر السياسي أو السياسة الشرعية، وفق المنظور الإسلامي.

من هذا المنطلق جاء هذا البحث المتواضع الذي يتحدث عن ماهية المسؤولية لغة واصطلاحا، ونشأة هذا المصطلح، وأنواعه، والذي من صوره، واجبات المجتمع نحو الراعي وواجبات الراعي نحو المجتمع، وغير ذلك من التفصيلات لهذا الموضوع الذي نسترشد القرآن الكريم، ونستلهم من أقوال الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأقوال العلماء ومنظري الفكر السياسي والأخلاقي والتشريعي والقانوني في الإسلام.

فالمسؤولية هي: شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه ﷻ حينما يفرط في القيام به، ويتساهل في أدائه على الوجه الذي يستطيعه، والمسؤولية تكليف بما يطيق بحيث لا يقعد الإمام عن سبب من أسباب القيام بهذا العمل على الوجه المطلوب وهو في طاقته ووسعه إلا ويبذله، لأنه متمم لعمله، وسبب موصل إلى إتقانه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وبناء على ما تقدم فإن المسؤولية في الإسلام لا يمكن تحديدها إلا من خلال تكليف الله للعباد، بما اشتملت عليه الشريعة الإسلامية من أوامر ونواه، وحض وترغيب وزجر وترهيب حصرت هذا الموضوع في بحثي بهذا العنوان " **المسؤولية: مفهومها ـ طبيعتها الفردية والاجتماعية وفق المنظور الإسلامي** "

وقد دار البحث حول الموضوعات التالية:

١ـ المبحث الأول: مفهوم المسؤولية وتحته ستة مطالب

المطلب الأول: المفهوم العام للمسؤولية في النظم الإسلامية

المطلب الثاني: فقه المسؤولية في الإسلام.

المطلب الثالث: الإسلام دين المسؤولية.

المطلب الرابع: المسؤولية الشرعية.

المطلب الخامس: المسؤولية الأخلاقية.

المطلب السادس: المسؤولية الاجتماعية.

٢ـ المبحث الثاني: المسؤولية ضرورة اجتماعية وتحته ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: المسؤولية ضرورة اجتماعية.

المطلب الثاني: ضبط المسؤولية.

المطلب الثالث: شروط تحقق المسؤولية وموانعها وصلتها في التكاليف الشرعية.

٣ـ **المبحث الثالث:** المسؤولية في الشريعة الإسلامية. وتحته خمسة مطالب.

المطلب الأول: حقوق الراعي على الرعية.

المطلب الثاني: مسؤولية التكاليف الشرعية.

المطلب الثالث: الشعور بالمسؤولية.

المطلب الرابع: المسؤولية والمسؤولية الكبرى.

المطلب الخامس: أنواع المسؤولية في النظم الإسلامية.

٤ ـ **المبحث الرابع:** المسؤولية الجماعية في السنة النبوية.

وخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات

أولا: مفهوم المسؤولية

تعريف المسؤولية [١]**:لغة واصطلاحا :**

المسؤولية: مصدر صناعي[٢]، مأخوذ من مادة (س أ ل) سأَلَ يَسأَل، اسْأَلْ / سَلْ، سُؤالاً وتَسْآلاً، فهو سائِل، والمفعول مَسْئول، وقيل: المسؤولية في اللغة من سأل يسأل سؤالاً ومسألة فهو مسئول والاسم المسؤولية[٣].

والمراد بها هنا إلزام شخص بضمان الضرر الواقع بالغير، نتيجة لتصرف قام به[٤]

وعند القانونيين المسؤولية قسمان[٥]:

أ. **المسؤولية التعاقدية:** وهي ضمان الضرر الناشئ عن الإخلال بعقد.

ب. **المسؤولية التقصيرية:** وهي ضمان الضرر الناشئ عن الفعل الضار[٦].

فالمسؤولية من كلمة (مسؤول)، مثل الوطنية: من كلمة وطن، والقومية: مصدر صناعي من كلمة قوم. يقال: سألته الشيء، وسألته عن الشيء سؤالا، ومسألة والأمر منه سل، وقال ابن سيده: والعرب قاطبة تحذف الهمز منه في الأمر فإذا وصلوا بالفاء أو الواو همزوا وكقولك: فاسأل واسأل، ورجل سؤله: كثير السؤال، وتساءلوا: سال بعضهم بعضا، وأسألته سؤلته ومسألته، أي قضيت حاجته وقول الله تعالى:﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾(الصافات: ٢٤). قال الزجاج: سؤالهم سؤال توبيخ وتقرير لإيجاب الحجة عليهم لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ عالم بأعمالهم.أما قوله سبحانه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن: ٣٩). أي لا يسأل ليعلم ذلك منه، لأن الله قد علم أعمالهم، وقال ابن بري: يقال: سألته الشيء بمعنى استعصيته، وسألته عن الشيء استخبرته، وقال ابن الأثير: السؤال في كتاب الله والحديث النبوي نوعان:

أحدهما: ما كان على التبين والتعلم مما تمس الحاجة إليه فهو مباح أو مأمور به.

الآخر: ما كان على طريق التكلف والتعنت فهو مكروه ومنهي عنه، فكل ما كان من هذا الوجه ووقع السكوت على جوابه فإنما هو ردع وزجر للسائل، وإن وقع الجواب عنه فهو عقوبة وتغليظ قال ابن منظور: ما جاء في الحديث من أنه " كره المسائل وعابها " أراد المسائل الدقيقة التي لا يحتاج إليها، وفي حديث الملاعنة: لما سأله عاصم عن أمر من يجد مع أهله رجلا..." فأظهر النبي –صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم– الكراهة في ذلك إيثارا لستر العورة، وكراهة لهتك الحرمة، وفي الحديث أنه نهى عن كثرة السؤال، قيل هو من هذا، وقيل هو سؤال الناس أموالهم من حاجة [٧].

ولفظ " المسؤولية " من الألفاظ المحدثة التي يراد بها التبعة، يقال: أنا بريء من مسؤولية هذا العمل أي من تبعته، وقيل المسؤولية ما يكون به الإنسان مسئولا ومطالبا عن أمور أو أفعال أتاها. والمسؤولية عند أرباب السياسة: هي الأعمال التي يكون الإنسان مطالبا بها [٨].

ثانياً: المسؤولية اصطلاحا:

تعددت التعريفات لهذا المصطلح فقال الدكتور درازا: لمسؤولية تعني كون الفرد مكلفا بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدم عنها حسابا إلى غيره وينتج عن هذا التحديد أن فكرة المسؤولية تشتمل على علاقة مزدوجة من ناحية الفرد المسؤول بأعماله وعلاقته بمن يحكمون على هذه الأعمال، والمسؤولية قبل كل شيء هي استعداد فطري، إنها هذه المقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بواسطة جهوده الخاصة " [٩].

وقيل: المسؤولية: التزام الشخص بأداء العمل المنوط به طبقاً لما هو محدد.

يقال: أنا بريءٌ من مسئولية هذا العمل، وتطلق (أَخلاقيًّا) على: التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أَو عملا. وتطلق (قانونًا) على: الالتزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقًا للقانون [١٠].

وقال الخاقانيّ: يراد بالمسؤولية الشّعور بأداء الواجب والإخلاص في العمل وليست المسؤولية مجرّد الإقرار، فإنّ الجزم بالشّيء لا يعطي صفة المسؤولية وإنّما يجد المتحسّس بها أنّ هناك واجبات لا بدّ من الانقياد إليها بغضّ النّظر عن النّتائج، فإنّ إنقاذ الغريق ممّا يشعر الشّخص بالمسؤولية في إنقاذه إذا كانت له القدرة على الإنقاذ ، وإنّ دفع الظّلم ممّن له القدرة على دفع الظّلم يجب على ذلك الشّخص أن يدفع عن المظلوم وهو مسئول عن التّرك، فالمسؤولية تختلف بلحاظ الأفراد وبلحاظ المجتمعات [١١]. .

ويرى الباحث بما أن المسؤولية مصدر من مسؤول، فلا يتصور، فاللفظ المتداول لمفهوم المسؤولية عند السابقين هو أهلية مسؤول من غير سؤال يُسأل عنه، وعليه فأركان المسؤولية: سؤال ومسؤول وسائل، ولذا فإن هذا التعريف اللغوي يلزم منه أن كل ما يسأل عنه ويحاسب المرء عليه في الدنيا أو الآخرة أو في كليهما هو مسؤولية.

لذا يرى الباحث أن المِسْؤولِيةَ (بوجه عام): حالُ أَو صفةُ مَنْ يُسْأَلُ عن أَمْرٍ تقع عليه تبعَتُه. والمسؤولية: من سأل، فهو مسؤول، والاسم مسؤولية وإلزام شخص بضمان الضرر الواقع بالغير نتيجة لتصرف قام به.

وهناك المسؤولية التعاقدية: وهي ضمان الضرر الناشئ عن الإخلال بعقد، والمسؤولية التقصيرية ضمان الضرر الناشئ عن الفعل الضار.

ولم ترد كلمة مسؤولية فيما وقفتُ عليه من كتب الأقدمين بالمعنى الذي استُعملت فيه حديثًا، وإن كان معناها شائعًا عندهم. " بالأهلية والأداء"، وهي: صلاحية الإنسان لأن تعتبر أقواله وأفعاله، قال السرخسي –رحمه الله– في أهلية الأداء: "هذه الأهلية نوعان: قاصرة وكاملة، فالقاصرة: باعتبار قوة البدن وذلك ما يكون للصبي المميز قبل أن يبلغ أو المعتوه بعد البلوغ، فإنه بمنزلة الصبي من حيث إن له أصلَ العقل وقوة العمل بالبدن، وليس له صفة الكمال في ذلك حقيقة ولا حكمًا، والكاملة: تبتنى على قدرتين قدرة فهم الخطاب وذلك يكون بالعقل وقدرة العمل به وذلك بالبدن. ثم يبتنى على الأهلية القاصرة صحة الأداء، وعلى الكاملة وجوب الأداء وتوجه الخطاب به، لأن الله تعالى قال:﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٥٦، وقبل التمييز والتمكن من الأهلية لا وجه لإثبات التكليف بالأداء لأنه تكليف وممارستها مسؤولية ما لا يطاق وقد نفى الله تعالى ذلك بهذه الآية" (١٢).

فيفهم من قول السرخسي: "ثم يبتنى على الأهلية القاصرة صحة الأداء وعلى الكاملة وجوب الأداء وتوجه الخطاب به" أن الطفل غير المكلف بالمسؤولية –أي من ليست له أهلية أداء–قد يقوم بالمسؤولية على أتم وجه، وهذا كثير مشاهد، وهو ما لا تمنعه الشريعة، ولكن لا توجبه عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر" (١٣)

كما أن أناسًا وجب عليهم القيام بالمسؤولية فضيعوها ولم يؤدوا الواجب الذي أداه بعض من لم يكلف به.

ومن التعريف السابق للمسؤولية –المتعارف عليها بأهلية الأداء–يرى الباحث أن من تصرف كما ينبغي أن يتصرف من أُنيط بهم الشارع المسؤولية (أهلية الأداء) –بأن اعتبر أقوالهم وأفعالهم وأنفذ أثرها–فقد تصرف بمسؤولية، ومن لم يتصرف كما ينبغي أن يتصرف من أُنيط بهم الشارع أهلية الأداء فقد تصرف بغير مسؤولية.

ويفهم أن من تصرف بغير مسؤولية مع إناطتها به فإنه محاسب على تخليه عن المسؤولية وسوء تصرفه فيها، لأن تركه للمسؤولية وتفريطه فيها يتحمل نتائجها.

وكما أن المسؤوليات الواجب أداؤها شرعًا قسمان، قسم عيني وقسم كفائي أو مجتمعي، وذلك أن الفرد مكلف بمسؤوليات يجب عليه القيام بها بصفته الشخصية، ومسؤوليات يجب عليه أداؤها مع بقية أفراد المجتمع، فيلزم من هذا أن المجتمع مسؤول وعليه ما يجب القيام به.

وجملة القول: إن المسؤولية جاءت من المصدر الصناعيّ من مَسْئول: تَبِعة:– تقول: المسؤولية تقع على عاتقي، – وتقول يستطيع تحمُّل مسئوليَّات كبيرة ولها تعريفات متنوعة منها:– ألقى المسؤولية على عاتقه: حمّله إيَّاها، – مسئوليّة أخلاقيّة: التزام الشّخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً، – مسئوليّة جماعيّة: التزام تتحمّله الجماعة، – مسئوليّة قانونيّة: التزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقًا للقانون.

يقابل ذلك اللاآمسؤولية وهي أفعاله التي قام بها وتصرف بمحض إرادته.

المبحث الأول: مفهوم المسؤولية:

المطلب الأول: مفهوم المسؤولية في الشريعة الإسلامية

أـ المسؤولية الفردية: لا شك أن كل إنسان مسئول عن نفسه ومحاسب محاسبة فردية عن أفعاله وتصرفاته سلبا أو إيجابا وقد وردت نصوص تبين هذه المسؤولية الفردية منها: قول الله تعالى " ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٧] وقال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥]، وقال جل ثناؤه: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٩ – ٤١]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} (٨)، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ} [النساء: ٨٤]، لا بد من استشعار المسؤولية الفردية: قال تعالى ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

إن علينا مسئولية كبيرةً في أفرادنا تجاه بناء الفرد ذاته: نجاحك في تربية نفسك على الهدى ونجاحك في تعليمك وفي وظيفتك وفي أسرتك وفي بيتك في تفكيرك وعقلك في تعاملك مع الحدث نجاح الأسرة نجاح المؤسسة التجارية نجاحك في حياتك كلها نجاح وتحمل للمسؤولية الفردية.

ولينظر كل إنسان في حياته ماذا قدم، فكل امرئ حجيج نفسه، وسيقف بين يدي ربه غداً وحيداً فريداً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].

فينبغي علينا أن نحيي روحاً من روح الاجتماع في مسئوليتنا الفردية، وأن نعقد اجتماعات متعددة على مستوى الحي والحارة والمنطقة والمدينة، وأن نتدارس قضايانا، وأن نتدارس المخاطر المحدقة بنا، وأن نقرأ، وأن نستمع، وأن نتناقش، وأن نتدرب على روح الحوار والاستماع للآخرين، وتقديم الرأي وتصحيح الرأي، إننا بحاجة إلى أن نصحح أوضاعنا على الصعيد الفردي والجماعي قبل أن تنزل بنا النازلة أو تحل علينا الكارثة.

ب ـ المسؤولية الجماعية : تكمن أهمية المسؤولية الجماعية ـ سواء كانت في إطار جماعة أو شعب أو أمة ـ في كونها من الأهمية بمكان في عصر تعددت فيه القوى والمصالح العالمية وأصبحت كثير من الدول تتعامل مع الآخر

وفق برجماتية تحقق لها ما تصبو إليه من مصالح واستراتيجيات بعيدة المدى، صحيح أن المسؤولية الفردية لها وقعها المؤثر في حركة التغيير، إلا أن المسؤولية الجماعية أكثر تأثيرا على حركة التغيير الحضاري، لذلك جاءت دعوة القرآن إلى التغيير على صعيد الجماعة والأمة، وهو ما عبر عنه القرآن بـ (القوم).قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥]، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولعل حركة التغيير الحضاري لا تستمد إلا من النهوض الجماعي، وتحمل الجمع (القوم) لمسؤوليتهم التاريخية في هذه الحركة، أي أن كل فرد لابد أن يتحمل قسطه من عبئ هذه المسؤولية الكبرى. فهذا العبء لا يقع على شخص ما دون الآخرين أو حتى على جماعة ما، دون الجماعات الأخرى في إطار الأمة، فالسفينة عندما تُخرَق فإن جميع راكبيها سوف يتعرضون للغرق دون استثناء، ولذلك فإن كل شخص فيها مسؤول عن منع هذا الخرق، وإصلاحه في حال وقوعه، وإذا ما قام الجميع بمسؤولياتهم في ردمه، نجت السفينة، ونجوا هم أيضا، لان كلنا راع وكلنا مسؤول عن رعيته.

قَالَ عَامِرٌ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَخْطُبُ يَقُولُ، وَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى أُذُنَيْهِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا، الْمُدَّهِنِ فِيهَا، مَثَلُ قَوْمٍ رَكِبُوا سَفِينَةً، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، وَأَوْعَرَهَا، وَشَرَّهَا، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا الْمَاءَ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَآذَوْهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَأَمْرَهُمْ، هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ، نَجَوْا جَمِيعًا "(١٤) .

وهكذا فاذا وقعت حوادث وكان بإمكان فرد واحد أن يحول دون وقوع حادث ما، فليعمل بمسؤوليته بمجرد إحساسه به وبما يصدر من خطر في حال الإهمال. ومع ذلك فإن هذا لا يعني الإهمال والتغاضي من قبل الآخرين، بل لابد للجميع أن يكونوا مستعدين للتصدي لمثل هذه المسؤولية، وإن كانت حاجة التصدي حاجة كفائية من الممكن أن يسدها فرد أو مجموعة أفراد.

إن الله –سبحانه وتعالى –عندما أمرنا في كتابه بطاعته، والدعوة اليه، وأن نعمل بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإنما أراد لنا جميعا أن نتحمل مسؤولياتنا في الحياة الاجتماعية، ومردودات هذا التوجه المسؤول تعود بالنفع على الجميع، وتحول دون انتشار مختلف ألوان الفساد والانحراف الاجتماعي الذي إذا ما غض الطرف عنه فإنه

سيستشري ويستفحل أمره، ويصبح من الصعب -إن لم نقل من المستحيل -إزالته، والقضاء عليه لأننا لم نتحمل المسؤولية الجماعية في التغيير.

ويكشف القرآن الكريم للإنسان مسؤوليتَه إزاء نفسه والآخرين، بأن يُوقفه أولاً على ضرورة أن يدرك ذاته، وكيف قدِم إلى هذا العالم، وما هو دوره فيه، وإلى ماذا سيكون مآل، فإدراكُه لذاته وللغاية من وجوده يجعله يحيا حياتَه كما يريد اللهُ – تعالى – له فيها، ويتعامل مع الآخرين بشكل منظمٍ، ويتفاعل مع ما يحيط به بطريقةٍ إيجابية، ولقد لفت القرآنُ الكريم نظرَ الإنسان إلى التفكير في أصل خَلْقه في آيات مختلفة، كقوله – سبحانه -: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ الطارق: ٥، وكقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الطور: ٣٥.

إن هذه الآيات ومثيلاتِها تدعو الإنسانَ إلى أن يتأمل نفسه، ليستكشف كيف كان إيجاده إعجازيًّا عظيمًا، فهو لم يأتِ من لا شيء -أي من عدم -بل من تراب شكَّل قوامه الجسدي.

المطلب الثاني: فقه المسؤولية في الإسلام:

إن المقومات الأساسية لنهضة الأمم والمجتمعات، ودعائم تشييد الأمجاد والحضارات تكمن في العناية بقضية غاية في الأهمية، تُعد بداية طريق البناء الحضاري والاجتماعي، إنها قضية (المسؤولية). فالمجتمع المسلم مجتمع مسئول، وكل فرد فيه مطالب بالمشاركة في تسيير أمور مجتمعه، وبالتالي فالمسلمون مسئولون عن بعضهم البعض.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]، وقال جل وعلا: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧]، ويقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام على الناس راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والعبد راعٍ في مال سيده ومسئول في رعيته)، ثم يقول صلى الله عليه وسلم: (ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته)[١٥].

فهذا الحديث المتفق عليه يعطينا أهمية هذه الرعاية، حيث بدأها بعموم: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) وختمها بالعموم: (فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، وفصل فيما بين ذلك بذكر أربعة: بذكر الإمام، والرجل على أهل بيته، والمرأة في بيت زوجها، والرجل في مال أبيه، وهذا كنموذج أو مثال لمن عليه رعاية، فيبين صلى الله عليه وسلم هذه الرعاية التي لها أهميتها[١٦].

ويدل على هذا المعنى قوله جل وعلا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]

و المسؤولية في الإسلام تعني أن المسلم المكلف مسئول عن كل شيء جعل الشرع له سلطاناً عليه أو قدرة على التصرف فيه بأي وجه من الوجوه، سواء كانت مسئولية شخصية فردية، أم مسئولية متعددة جماعية. قال تعالى: ﴿ ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾ الإسراء ٢٦، قال تعالى:

﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى) القيامة ٢٦ وقال عز وجل: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ (الحجر ٩٢).

وإذا كانت المسؤولية في الإسلام تعني قيام الإنسان بحق الله تبارك وتعالى وكتابه، وبحق نبيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ونفسه، وأسرته، والمجتمع الذي يعيش فيه، ففقه المسؤولية يعني: أن المسؤولية في الإسلام منوطة بالفرد والجماعة والمجتمع والأمة المسلمة. ولا يُعفى من هذه المسؤولية أحدٌ في الإسلام إلا أن يكون غير مكلف لفقده بعض شروط التكليف كالعقل أو البلوغ أو القدرة. فالمكلف مسئول عن كل ما يصدر منه من قول وعمل في حدود ما يستطيع.

والمسؤولية في الإسلام مرتبطة بالجزاء ارتباطا وثيقاً، فيجعل الجزاء ثواباً أو عقاباً مترتباً على العمل الذي يقوم به الإنسان بوصفه مكلفاً مسئولاً عما كلف به أمام الله تعالى. قال تعالى: ﴿والوزن يومئذٍ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ (الأعراف ٨-٩). هذه الآية الكريمة توضح أن الإنسان مسئول أمام الله تعالى عما يعمل في الدنيا من خير أو شر ، وتوقظ في نفسه الإحساس بالمسؤولية والجزاء المترتب على القيام بحقها.

وكما نص القرآن على تحمّل المسؤولية أكدت ذلك أيضاً السنة النبوية بنصوص كثيرة منها:

ما روى البخاري ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما–قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومسئول عن رعيته) (١٧).

فهذا الحديث الشريف أصل في المسؤولية ــ كما سيأتي معنا ذكره مفصلا ــ ، وهو أكثر الأحاديث النبوية تفصيلاً في تحمّل المسؤولية على كل مستوى من مستوياتها وقد ختم ليكون عاماً لكل أحد من المسلمين.

المطلب الثالث: الشعور بالمسؤولية

إن الإسلام دين المسؤولية بجميع أنواعها الدينية والاجتماعية و الأخلاقية والعملية الخ.. وجعل الإسلام ذلك على مراتب ليتربى أفراده عليها، فأولها الشعور بالمسؤولية، ثم الإيمان بها، ثم الاستعداد لتحملها، ثم التفكير بمتطلباتها، ثم القيام بمهامها. ولا يمكن بلوغ هذه المراتب إلا بتوظيف كافة الطاقات الفكرية والاجتماعية والعلمية الخ.. بما يخدم الدين والمجتمع والوطن.

دروس للشيخ سعيد بن مسفر (١/ ٤، بترقيم الشاملة آليا)

في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ – ٧] لخصت هذه الآيات مضمون الدعوة التي أنيطت بالنبي صلى الله عليه وسلم وتبليغها إلى الناس، ولا تكاد جميع السور المكية تخرج عن إطار هذه الآيات التي جاءت في أول سورة المدثر.

والمدثر: الذي أخذ دثاره وتلحف بثيابه، وجلس يريد الراحة والسكينة، ويريد الجلوس والأنس، جاءت هذه الآيات لتشير إلى أن زمن التدثر والخلود إلى الراحة، والأنس والسكينة، والجلوس في البيت مع الزوجة والأولاد والأبناء قد ولى، وجاء زمن المجاهدة بكل أبعاده المادية والمعنوية.

والإنسان يشعر بعظم المسؤولية وضخامة الرسالة التي كلف بها النبي صلى الله عليه وسلم، إذا قاس نفسه وهو يجد الصعوبة ويفشل –أحياناً–في تربية أولاده في بيته، إذا كان عنده ولدان أو ثلاثة أو أربعة ومثلهم بنات، ثم يجد أن هذا فشل في تربيته، وتلك فشل في تربيتها، فيشعر بالمسؤولية الكبيرة التي أنيطت بالنبي صلى الله عليه وسلم في هداية العالمين.

ليس في تربية بيته، ولا هداية قبيلته، ولا هداية مدينته، ولا الجزيرة العربية، وإنما ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فيكلف بهذه الرسالة ثم يحملها صلوات الله وسلامه عليه، فيربيه الله عز وجل ويؤهله حتى يؤديها، ويستطيع القيام بها من أول لحظة، وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] انتهى، لا يوجد تدثر ولا جلوس الآن.

فالشعور بالمسؤولية هو إخلاص دائب في أداء الواجب، وحياة للضمير في مراقبة الله تعالى، وسعي أكيد لتطوير ذلك الأداء وهو الأمر الذي ينبغي أن يحققه كل مواطن مهما كانت درجة مسئوليته، ليحقق لنفسه ومجتمعه رفيع المنزلة، وعالي المكان في الدنيا والآخرة، وعلى قدر شعور المرء بمسئوليته يكون الجزاء والثواب قال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ الأنعام ١٦٠.

المطلب الرابع: المسؤولية الشرعية:

المسؤولية الشرعية نعني بها: القيام بالواجبات والتكليفات التي أمرنا الله بها وفق ما شرّع لنا عملاً وقولاً وخلقاً وسلوكاً، حيث أمرنا بتوحيده وعبادته وأداء أركان الإسلام مِنْ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت الحرام ولن يتمكن المسلم من تطبيق هذه الأركان على الوجه الصحيح إلا إذا أحسّ أنه مسئول عنها أمام الله تعالى، وأنه مجزي على ذلك أحسن الجزاء، ويعاقب على تركها أو ترك شيء منها بحسب ما يستحقه من العقاب قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره﴾الزلزلة ٧–٨، وقال جلّ شأنه ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأنّ سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى. وأنّ إلى ربّك المنتهى﴾ (النجم ٣٩–٤٢).

فهذه الآيات الكريمة توقظ في النفس الإحساس بالمسؤولية تجاه أحكام الشريعة خضوعاً وتطبيقاً والتزاماً فالمسلم مسئول عن عقيدته فيحافظ عليها نقية صافية، لا تشوبها شائبة ويقبل على عبادة ربه بهمة عالية ويؤدي فرائض الإسلام أداءً حسناً بلا تساهل ولا تفريط.

جاء في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم (حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذّب من لا يشرك به شيئاً) (١٨).

ومن المسؤولية الدينية مسئولية المسلم عن نفسه التي بين جنبيه فعليه أن يؤمن أن سعادته ونجاته موقوفة على مدى خضوعها والتزامها الطريق المستقيم فبالإيمان والعمل الصالح تطهر النفس قال تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ٩-١٠) من أجل هذا يعيش المسلم عاملاً على تأديب نفسه وتطهيرها من الأدران ويجنبها ما يفسدها من المعتقدات الباطلة ويتعاهدها بالمجاهدة والصبر والمصابرة كُل حين ومراقبة الله في السر والعلن، فيحملها على فعل الخيرات، ويدفعها إلى الطاعة دفعاً، كما يصرفها عن الشر والفساد صرفاً، فهو مسئول عن نفسه، والنفس مُلك لله فلقد حرم الله قتل النفس بغير حق كما حرّم الإضرار بها والانتحار وإيرادها المهالك لقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ (النساء٢٩).

المطلب الخامس: المسؤولية الأخلاقية

المسؤولية في الإسلام منوطة بكل مسلم بالغ عاقل فهي مسئولية شخصية اجتماعية دينية وعلمية غير أنها جميعاً مسئولية أخلاقية لأن الأخلاق في الإسلام من الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

والمسؤولية الشخصية الأخلاقية تعني أن الإنسان مسئول أمام نفسه فيحاسبها على كل تقصير في أي قيمة من القيم الأخلاقية التي أقرّها الإسلام يقول الله تعالى في مجال المسؤولية الشخصية الخُلقية: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره﴾ (القيامة ١٤-١٥) ومعنى هذا أن المسؤولية الشخصية الخُلقية تنبع من نفس الإنسان وقلبه وداخله، ولا تحتاج إلى وازع خارجي. وهذا النوع من المسؤولية يُعد من أهم صفات المسلم لأن إحساسه بها والتزامه بالمنهج الأخلاقي هو الذي يجعل منه إنساناً صالحاً مُرضياً لربه، فاعلاً مؤثراً في نفسه وفيمن يحيط به من الناس.

ولقد وصف الله تبارك وتعالى الأمة الإسلامية بأنها خير الأمم لتوفّر صفات أخلاقية معينة في تلك الأمة، قال تعالى: ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران ١١٠). فالإيمان بالله تعالى يستتبعه العمل الصالح، والأمر بالمعروف حب لنشر الخير وحب للناس وهذا كله قمة الخلق الحسن.

والقيام بالمسؤولية الخلقية يجب أن يكون صفة لازمة للمسلم يتعامل بها في كل حين ومع كل الناس، وكلما طال عمر المسلم في الدنيا وذخر بالأخلاق الحسنة كلما جعله ذلك من خيار المسلمين.

روى الترمذي بسنده عن أبي الدرداء -رضي الله عنه-قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ﴿ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق ﴾ [١٩] والقرآن الكريم يقرر هذه المسؤولية ويربط بها كل تكاليف الدين بل كل فضيلة من فضائل الأخلاق قال الله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ (يونس ١٠٨).

إن فضائل الأخلاق التي دعا إليها القرآن الكريم كثيرة نتمكن من معرفتها بالتأمل في صفات الله سبحانه التي وصف بها نفسه، وكلها مما يجدر بالإنسان أن يتحلى بها ، و أن يتخلى عما يضادها من الصفات.

وهكذا تتضح لنا المسؤولية الأخلاقية للمسلم، وهي اللبنة الأولى في بناء المسؤولية، والعمود الذي ترتكز عليه المسؤولية في مختلف أنواعها.

المطلب السادس: المسؤولية الاجتماعية

تحدثنا فيما سبق عن المسؤولية الأخلاقية وأن المسلم مطالب من خلال القرآن والسنة بأن يكون حسن الخلق، وتلك هي المسؤولية الشخصية له، فهو مسئول عن كل ما يصدر عنه من قول أو عمل وإذا امتد هذا الشعور بالمسؤولية إلى غيره فإنه يحقق المسؤولية الاجتماعية، وكل من المسؤولية الاجتماعية والأخلاقية تسيران جنباً إلى جنب تدعم كل واحدة منهما الأخرى فأي تقصير في القيام بالمسؤولية الخلقية ينعكس بالضرر على صاحبه أولاً ثم المجتمع الذي يعيش فيه ثانياً. وفي القيام بها تأمين للنفس والمجتمع من الأخطاء صغيرها وكبيرها.

ولنا وقفة مع صور من القدوات الجادة في القيام بالمسؤولية الجماعية نحو الآخرين حيث ضرب لنا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أروع الأمثلة والمواقف في تحقيق هذا النوع من المسؤولية بدءاً برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما تحمّل أعباء الرسالة لهداية قومه إلى دين الله القويم فأوذي صلى الله عليه وسلم و أُحيكت المؤامرات لقتله وطرد من بلده أحب البقاع إليه و لا زال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يحقق هذا الانتماء الاجتماعي لأفراد مجتمعه ووطنه حينما يأتي العفو النبوي يوم فتح مكة فيقول لهم: ﴿اذهبوا فأنتم الطلقاء﴾ (٢٠).

فنحن حين نعفوا عمن أساء إلينا ونقبل عذر من يعتذر ونقيل عثرته فنحن نقوم بالمسؤولية الاجتماعية، وهذه صورة أخرى مع نبي الله يوسف عليه السلام حينما أدى هذه المسؤولية مع أفراد أسرته حيث عفا عن إخوته وقابل الإساءة بالإحسان فسمت نفسه وترفّع عن الانتقام و يمتد ذلك الشعور من يوسف عليه السلام حينما يستشعر أهمية النفع للآخرين وتعليم الناس الخير فلم يستسلم للأحزان ويركن إلى الدعة والكسل بل استثمر وجوده في السجن لدعوة الناس إلى الخير وإلى عبادة الله وحده وترك الشرك فعندما استفتاه الغلامان عن تأويل رؤياهما بذل لهما كل ما في وسعه وعمد إلى دعوتهم إلى عبادة الله وحده ولا زال هذا الشعور من نبي الله يوسف عليه السلام في أهمية دورة بالقيام بالمسؤولية الاجتماعية وهو في مثل هذه الظروف حتى يتسع نطاق ذلك لينفع مجتمعاً بكامل أفراده حينما عبّر يوسف عليه السلام رؤيا الملك والمتأمل في الآيات يجد أن يوسف لم يكتفي بتأويل الرؤيا ، ولكنه من تمام نصحه و إخلاصه أرشدهم إلى ما يجب عليهم أن يصنعوا في تلك السنوات المخصبات من كثرة الزرع والادخار ، فخطط لهم ما يمكنهم من تجاوز الأزمة التي سيصابون بها. فلم تكن إساءتهم إليه وسجنهم إياه وهو في مثل هذه الظروف مانعاً له من القيام بالمسؤولية الاجتماعية.

فنخلص من خلال ما سبق إلى أهمية المسؤولية الاجتماعية وهي المسؤولية الذاتية عن الجماعة بالاهتمام والفهم والمشاركة، فالفرد يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه فتمرض روحه أو تهزل، أو تصح وتقوى تبعاً لصلاح المجتمع أو فساده.

و هذه المسؤولية تتضح في بيئته الصغيرة فيتحمل المسلم هذه المسؤولية بدءاً بأسرته فيوقر والديه ويبرهما ويعطف على إخوته ويحترمهم ويقوم بواجباته تجاههم ، ثم تتسع الدائرة في البيئة الكبيرة، وهي المجتمع لتشمل الأقارب والأرحام في البر و الصلة والإحسان، وليؤدي مسئوليته الاجتماعية فيحب أفراد مجتمعه ويقوم بحقوقهم مبدأُه بالتآلف والرفق والعفو والصفح وشعاره حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) (٢١).

ومن المسؤولية الاجتماعية مسئولية المسلم عن وطنه الذي نشأ فوق أرضه وشبَّ على ثراه ، وترعرع بين جنباته ، على أرضه يحيا ويعبد ربه ، ومن خيراته يعيش فهو يحب هذا الوطن وينتمي إليه انتماء فريداً فيحرص على وحدة الصف بين أفراد وطنه مؤثراً لهم شعاره الاحترام والتواصل مع الآخرين ومعاشرة الناس بالحسنى ساعياً في طاعة ولاة الأمر واحترام الأنظمة والتعليمات وتقدير الممتلكات ولقد طبق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هذا النوع من المسؤولية حينما خرج من مكة فقال: " ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك " (٢٢).

ومن ثم مسئوليته نحو أمته المسلمة فيحققها حينما يلتزم بأخلاق الإسلام ويحقق الانتماء والاعتزاز به و الشعور بالجماعة المسلمة التي تشاركه في عقيدته وعبادته و أخلاقه مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى) (٢٣)، فالقيام بالمسؤولية الاجتماعية يمثل إحساساً صادقاً وضميراً يقظاً وعملاً دائباً في شخصية المسلم وبتحقيقها تسعد الأسر وتهنأ المجتمعات وترقى الأمم.

المبحث الثاني: المسؤولية ضرورة اجتماعية

١ ـ النشأة الطبيعية للمسئولية

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن جعل الإنسان اجتماعياً بالضرورة أو كما قيل مدني بالطبع، مما أدى إلى اجتماع الناس بعضهم على بعض وتكوين مجتمعات بشرية: وأن أول اجتماع يكون في نطاق الأسرة، ففي الأسرة تتكون علاقات الأبوين والزوجين والأبناء، ومن هذه العلاقات قد يحصل هناك نوع من التصادم، فلا بد من شخص يحتكم إليه ليفصل في ذلك النزاع، فتلجأ الأسرة إلى كبيرها، أو حكيمها. وكذلك الحال بين الأقارب والجيران بل والمجتمع ككل، فإن الضرورة الاجتماعية تحتم وجود شخص يحتكم إليه ليفصل في المنازعات والخصومات الناتجة عن تصادم مصالح الناس بعضهم مع بعض.

وهذا الحكم إما أن يكون عن طريق انتخاب الناس له واجتماعهم عليه، سواء لكبر سنه أو حكمته ورجاحة عقله ونفاذ بصيرته، وإما أن يكون عن طريق الغلبة والقوة والحكمة، بأن يكون هو الحاكم المشرع الذي يسن لهم القوانين ويفصل بينهم في المنازعات.

٢ ـ وإذا أمعنا النظر في المسؤولية عمن حفظ لنا التاريخ بعضاً من تشريعاتهم وقوانينهم: نجد أن السلطة كانت بيد الحكام فهم الذي يسنون القوانين، ويضعون الأحكام. وهم الذين يسألون الناس عن كل ذلك ويحاسبونهم عليه.
ونجد أن الناس المحكومين هم المسئولون أمام الحكام عن تنفيذ هذه التشريعات وتلك الأحكام، والالتزام بها أو تحمل الصعوبات اللازمة حال مخالفتها.

المطلب الأول: المسؤولية ضرورة اجتماعية

إن المجتمع في حقيقته التكوينية بناء بشري، لبناته الأفراد، جمعت بينهم مصالح وعلاقات مشتركة. فالفرد هو العنصر الأول في هذا المجتمع خلقه الله في أحسن تقويم، وصوره في أحسن صورة، ووهبه من الاستعدادات والغرائز والوجدانات الفطرية، ما فضله على كثير مما خلق، وكرمه بالعقل الذي جعله مناط إدراك الإساءة والاحسان. كما وهبه الإرادة الحرة التي بها يختار الطريق النافع له، إما طريق الخير، وإما طريق دفع الشر عنه فغرائزه تقوده إلى انفعالاتها ووجداناته تقوده إلى ميولها.
ولكن هذه الغرائز والطبائع البشرية قد تجمح أحياناً فتطغى وتخرج عن إطار الخير الذي كان الواجب عليه أن يفعله رغماً عن غرائزه وميوله.
فقد يعتدي الفرد على غيره، سواء بأخذ ماله، أو انتهاك عرضه، أو سلب حياته، إلى غير ذلك من صروف الاعتداء. فإذا تركت المجتمعات هكذا، يسبح فيها ذلك الفرد دون رادع يصده أو أحكام تردعه، فإن الأرض تتحول إلى مسرح حيواني، غارق في حيوانيته، القوي يأكل الضعيف، ولا يأمن الإنسان على نفسه حتى من أقرب الناس إليه.
ولكن تكليف الفرد بفعل الواجبات عليه نحو المجتمع، وتحديد حقوقه في ذلك المجتمع، وتحميله تبعة أعماله ومسئولية أفعاله، فتكون هناك واجبات وحقوق على كل فرد يسأل عنها أأداها أم لا؟ يحدد لكل فرد مسئوليته أمام مجتمعه فيستقيم أمر ذلك المجتمع، ولا تتعارض مصالح أفراده.
فمثلا: موقف الصديق رضي الله تعالى عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والآية الكريمة في وصف الموقف قال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، على أن هناك موقفاً آخر للكليم موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حينما أمر أن يخرج بقومه ويسير بهم، قال: وإلى أين؟ قال: في ظل السحابة أينما سارت، فخرج وإذا بالسحابة تسير حتى ساقتهم إلى ساحل البحر.
ولما خرج بنو إسرائيل ليلاً وعلم فرعون بخروجهم، بات في المدائن يجمع جنده، فسار على إثرهم، فإذا بموسى ومن معه بين خطرين، البحر أمامهم والعدو وراءهم، فأيقن القوم بالهلاك، فقالوا: إنا لمدركون، لا طريق أمامنا، وهذا العدو وراءنا، ولكن نبي الله موسى الذي خرج بأمر من الله موقن بنصر الله فقال: كلا –ولو نطقت بكلمة كلا أربع أو خمس مرات لأحسست بالآلام، لأنها كلمة قوية يزلزل صوتها الفم– ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

[الشعراء:٦٢] أي: سيدلني، وانظر إلى الفارق بين (إن الله معنا)، و (إن معي ربي)، فموقف الصديق رضي الله تعالى عنه كان جزءاً من المسؤولية في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه أعد الرواحل، وكان يصحبه في عرضه على القبائل، وهيأ له الطريق، وخرج معه رفيق الهجرة.

ولما خرج كان تارة يسير أمامه، وتارة وراءه، فيسأله: ما لي أراك يا أبا بكر هكذا؟ فيقول: أتذكر الرصد فأكون أمامك، وأتذكر الطلب فأكون وراءك، فقال له: أتريد لو كان شيء يكون فيك يا أبا بكر؟ قال: بأبي أنت وأمي، إن أهلك وحدي فأنا فرد من الناس، أما أنت فمعك الرسالة.

فأبو بكر يسهم في الحفاظ على رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، فأنذر أبو بكر رسول الله، قال: (الطلب أدركنا يا رسول الله، وبكى، قال: ما الذي يبكيك يا أبا بكر؟ قال: والله لا أبكي على نفسي ولكن عليك أنت...) من هنا كان قد تحمل جزءاً من مسئولية الهجرة، وكان له شق من تلك المعية ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. ولم يكن في قوم موسى من يعادل أبا بكر مع رسول الله لما جاء الفرج وخرجوا من البحر ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] الآن ما خلصكم إلا التوحيد وحده، فهل الأصنام هي التي أنجتكم من فرعون، وجلعت الماء جامداً والطريق يابساً؟ سبحان الله العظيم! إذاً: لم يكن في قوم موسى من يعادل أبا بكر رضي الله تعالى عنه.

فالمسؤولية إذاً ضرورة اجتماعية لسعادة المجتمع أفراده وجماعاته. كما قال الشاعر: (٢٤)

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم تبن أوتادُ

المطلب الثاني: ضبط المسؤولية

لقد أحكم القرآن الكريم ضبط المسؤولية في الإسلام، وبين أن كل نفس بما كسبت رهينة، وأنه لا يحمل الإنسان إلا تبعة أعماله. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم ٣٣-٤٢).

فالآيات الكريمة تبين لنا القاعدة التي تضبط تحمل المسؤولية في الإسلام، وهي أن الإنسان لا يؤخذ بجريرة غيره بل عليه ما حمل وله ما كسب.

وتبدأ ببيان صورة حسية واقعية حصلت في العهد المكي، ذلك أن الوليد بن المغيرة أسلم، فلقيه بعض من يعيره، فقال أتركت دين الأشياخ، وضللتهم وزعمت أنهم في النار، كان ينبغي لك أن تبصرهم فكيف يفعل بآبائك؟ فقال إني خشيت عذاب الله، فقال: أعطني شيئاً وأنا أحمل كل عذاب كان عليك عنك، فأعطاه شيئاً ثم تعاسر عليه. (٢٥)

فهذه القضية تبين لنا جانباً من الخطأ في تحمل المسؤولية وبعد أن تلفت الآيات الكريمة الأنظار إلى هذه الصورة الخاطئة تقرر بادئ ذي بدء أن الغيب لله سبحانه لا يعلمه أحد سواه.

ثم تبين أن هذا الدين قديم موصولة أوائله وأواخره، راسخة أصوله ثابتة قواعده، صدق بعضه بعضاً على توالي الرسالات والرسل، وتباعد المكان والزمان، فهو في صحف موسى، وهو في ملة إبراهيم الذي وفى بكل شيء، وفي جميع شرائع الإسلام، وجميع ما أمر به من الطاعة، فماذا في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى؟

قال تعالى: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ النجم الآية: ٣٨، فلا تحمل نفس حمل أو ثقل أخرى، ولا تخفيفاً عن نفس ولا تثقيلاً على أخرى، فلا تملك نفس أن تخفف من حملها، أو وزرها، ولا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئا. فكل نفس مسئولة عن نفسها لا تؤاخذ بعمل سواها ولا بجريرة غيرها. بل كل آثمة فإنما إثمها عليها. وكما لا يحمل على الإنسان من وزر غيره كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسبه هو لنفسه. قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم الآية: ٣٩).

فلا يحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله لا يزاد عليه شيء من عمل غيره، ولا ينقص شيء لينال غيره. وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى(٢٦).

فالفرد هو المسئول عن حمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فلن يحمل عن الإنسان شيء، ولو كان الحامل ذا قربى، فقد قال تعالى:﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾. فاطر: آية ١٨. أي وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً ولو كانت قريبة لها في النسب فكيف بغيرها ممن لا قرابة بينها وبين الداعية لها؟

قال سيد قطب: وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي، وفي السلوك العملي سوءا. فشعور كل فرد بأنه مجزي بعمله لا يؤاخذ بكسب غيره، ولا يتخلص هو من كسبه، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب، مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً.

كما أنه في الوقت ذاته عامل مطمئن، فلا يقلق الفرد إن يؤخذ بجريرة الجماعة فيطيش ويئيس من جدوى عمله الفردي الطيب. ما دام قد أدى واجبه في النصح للجماعة، ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة. (٢٧).

كما أن الإنسان مسئول أيضاً عن آثار عمله، ومن تسبب في ضلالهم أو الانحراف بهم عن تحمل مسئولياتهم التحمل الصحيح. قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. (العنكبوت: آية ١٣)

وفي الحديث الصحيح: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)(٢٨). فكل إنسان سوف يرى عمله وآثاره، وسوف يجازى عليه أوفى الجزاء قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ

الأَوْفَى﴾ أي لن يضيع شيء من سعي الإنسان وعمله وكسبه، ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق، سينال كل امرئ جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم.

فتحديد مبدأ فردية التبعة، إلى جانب عدالة الجزاء، يحقق للإنسان قيمته الإنسانية القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسئولاً مؤتمناً كريماً تتاح له الفرصة للعمل ثم لا يؤخذ إلا بما عمل، وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء، عدالة مطلقة لا يميل لها الهوى، ولا يتعدى بها القصور، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور.

ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره، فحين يتيقن أن منتهى كل شيء إلى الله فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مفر منها، ولا محيص عنها، ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة أو يحاول في هذا ما يستطيع ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق.

في هذه الآيات الكريمة ـ سابقة الذكر ـ أسس مبدأ المسؤولية الذي تضبط به في الإسلام، وكان بناء هذا الأساس على قاعدتين عظيمتين هما: عدالة الجزاء، وتربية الضمير الإنساني.

وذلك أنه متى علم الإنسان أنه سوف يكون هناك نهاية لهذا العالم وجزاء وحساب في الآخرة وأن المنتهى إلى الله سبحانه فإنه سوف يحاسب نفسه قبل أن يحاسب سوءا في السر أو العلن، كما أنه سوف يحمل هذه المسؤولية التي انيطت بعاتقه خير حمل، متى علم أن الجزاء هو الجزاء الحق والعدل الذي لا يخالطه شيء.

إن المسؤولية في الإسلام تختلف اختلافاً كبيراً عن المسئوليات في الديانات غير الإلهية والقوانين الوضعية الأخرى. وذلك أن أمة الإسلام متصلة بالله تعالى، وهي صلة وثيقة بين العبد وربه صلة لها ضوابطها ومقوماتها وشروطها.

فالمسؤولية في الإسلام بالنسبة للإنسان تعود أصولها إلى تكليف الله تعالى لآدم وبنيه منذ أن أنزله من الجنة. قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة ٣٨، ٣٩).

ولهذه المسؤولية تشريع وتفصيل جوانبها صادرة من الله تعالى للمسئولين على لسان الأنبياء المرسلين والكتب المنزلة عليهم. والنتيجة لهذه المسؤولية هي: إما مكافأة على الامتثال والطاعة بشَّرَ بها المرسلون، وإمام عقاب على الكفر والعصيان، أنذر به المبلغون المنذرون وهم الأنبياء عليهم السلام.

وهذا بخلاف المسؤولية في غير الإسلام فإنها تتعلق بجزاءات الدنيا العقابية، كما ينص عليه القانون، أو مسئوليات متوهمة تنص عليها أساطير الكهان ورجال ذلك الدين والفلسفات والديانات الوضعية.

كما أن المسؤولية التكليفية في الإسلام متعلقة بذمة العبد، يجب الوفاء بها فهو أمين على ما كلف به، ومحاسب عليه، مثاب أو معاقب.

وفي هداية القرآن الكريم سمى ما كلف به من فرائض وواجبات وحقوق أمانة وعهد، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾الأحزاب: ٧٢. بمآل تفريطه فلم يؤدها ويوف بها كما طلب.

وأدى ظلم الإنسان وجهله لأن يكون الناس منهم المنافقون ومنهم المشركون، ومنهم المؤمنون المفرطون، فيعذب الله المنافقين والمشركين ويتوب على المؤمنين قال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب ٧٣).

قال الطبري: وأولى الأقوال بالصواب ما قاله الذين قالوا: إنه عنى بالأمانة في هذا الموضع: جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس(٢٩).

فالأمانة بلفظها العام الشامل تشمل كافة ما كلف به الإنسان من فرائض وواجبات، فهي تشمل أمانته مع ربه وخالقه، وأمانته مع نفسه ومع أسرته وأقاربه، وتعم أمانته على مجتمعه الخاص والعام، وأمانته مع الناس جميعاً، بل وأمانته مع الأشياء التي يتعامل بها ومعها.

المطلب الثالث: شروط تحقق المسؤولية وموانعها وصلتها بالتكاليف الشرعية.

أول شرط من شروط المسؤولية في القرآن: بلوغ الدعوة وثانيها: أهلية المبلغ (المسئول)

فالشرط الأول: هو بلوغ الدعوة عن الله. قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء ١٣-١٥). بهذه الآيات الكريمة يأتي تقرير شرط المسؤولية في الإسلام وهو التبليغ عن الله على لسان رسله. فتبدأ الآيات الكريمة بتأكيد التبعة، وصدق الجزاء والحساب على من تحملها، وإن الإنسان لا يحمل إلا ما حمله من خير أو شر.

فكل إنسان يولد في هذه الحياة يجد أمامه بعد أن يترعرع وينمو أنه لا بد أن يسلك طريق حياته إلى نهايتها كما سلكها الآخرون من قبله.

وفي سلوكه لطريق ما في حياته لا بد له من عمل، والعمل فيه خير وفيه شر، وهو يسلكه بمطلق اختياره بالإرادة التي أرادها الله له. وبالاختيار الذي هيأ له بواعثه ودواعيه. وكل عمل طار له فاقتنصه باختياره ألزم له في عنقه خيراً أو شراً وكتب عليه، ويوم القيامة يخرج الله له كتاباً دونت فيه جميع أعماله التي كتبها عليه الحفظة الكاتبون قال تعالى في سورة الانفطار ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الانفطار ١٠-١٢)).

فيقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

فمن اهتدى في هذه الدنيا ظهر أن اهتداءه يجني ثمرته هو فاهتداؤه لنفسه وضلاله عليها (ولا تزر) أي ولا تحمل (وازرة) حاملة (وزر) حمل نفس (أخرى) فكل مسئول عن نفسه.

كل هذه المسؤولية لها شرط، هذا الشرط هو بلوغ الدعوة بإرسال الرسول. قال تعالى: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا). فنص الآية يفيد نفي العذاب إلى غاية هي بعث الرسول، وذلك لأن قوله(معذبين) نكره في سياق النفي فيفيد العموم، فلا عذاب، لا في الدنيا ولا في الآخرة، إلا بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل وتحقق المسؤولية بالتكليف.

المبحث الثالث: المسؤولية في الشريعة الإسلامية

لقد اهتم الإسلام بحقوق الآخرين وجعلها من أعظم المسؤوليات المناطة بهم، فالراعي له حقوق وعليه واجبات، والرعية لهم حقوق وعليهم واجبات، وهكذا جميع أفراد المجتمع كل له حقوق وعيه واجبات.

المطلب الأول: حقوق الراعي على الرعية

لقد بينت آيات الكتاب الكريم حقوق الراعي وحقوق الرعية.

ففي حقوق الراعي قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ النساء: ٥٩. فبين أن من أوجب الواجبات تجاه الإمام طاعته في المعروف، وقد ذكر الله تعالى أيضا خبر لقمان عليه السلام وقيامه بمسؤوليته تجاه ابنه ليقتدى به في نصحه وإرشاده.

فمسؤولية الوالد تجاه أولاده مسؤولية عظيمة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ التحريم: ٦، قال الطبري –رحمه الله–: "يقيهم، أن يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليهم بأمر الله يأمرهم به ويساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها وزجرتهم عنها"(٣٠)

ومن حقوق الراعي على الرعية ما يلي:

أولاً: بيعته على الطاعة في المعروف: قال الله – سبحانه –: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]، فهذا حق الراعي على الرعية، ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء: ٥٩)، ولم يقل: "وأطيعوا أولي الأَمْرِ"، لأن طاعة ولي الأمر من طاعة الله ورسوله، وها هو الصديق –رضي الله عنه– لما تولَّى الخلافة يبيّنها، ويقول: "يا أيها الناس، إني قد ولّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أسأتُ فقوّموني، وإن أحسنتُ فأعينوني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه–إن شاء الله– والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قومٌ الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر، ولا ظهرت – أو قال: شاعت – الفاحشة في قوم إلا عمَّهم البلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله" (٣١).

ثانيًا: بذل النصح له: عن تميم الداري أن النبي –صلى الله عليه وسلم –قال: (الدين النصيحة))، قلنا لمن؟ قال: (لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم) (٣٢)، وفي حديث جَرِير، قال: "بايعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على إقام الصلاة، وإيتاء الزَكاة، والنصح لكل مسلم"(٣٣)

وعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه –عن النبي –صلى الله عليه وسلم –قال: (ما استُخلِف خليفةٌ إلا له بِطانتان: بِطانة تأمره بالخير، وتحضُّه عليه، وبِطانة تأمره بالشر وتحضُّه عليه، والمعصوم مَن عصم الله) (٣٤).

وقال –صلى الله عليه وسلم –: (ثلاث لا يَغِلُّ عليهم قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط بهم من ورائهم) (٣٥).

وعند الترمذي من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه –قال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم: (إن الله لم يبعث نبيًّا ولا خليفة إلا وله بِطانتان: بِطانة تأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وبِطانة لا تألوه خبالاً، ومن يوقَ بِطانة السوء فقد وُقي) (٣٦). قال ابن رجب –رحمه الله –: "النصيحة لأئمة المسلمين، معونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به، وتنبيههم برفق ولطف، والدعاء لهم بالتوفيق، وحث الأغيار على ذلك"(٣٧) .

ونصح الولاة من الأعمال الفاضلة التي يحبها الله ويرتضيها، قال النبي –صلى الله عليه وسلم –: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تنصحوا مَن ولاَّه الله أمركم) (٣٨) والنصيحة تكون سرًّا بين الناصح الصادق وبين الوالي، لتكون أخلص عند الله، وعلى هذا سار السلَفُ الصالح.

ثالثًا: توقيره، وإجلاله، واحترامه

ولهذا أوجب الله –تعالى –في كتابه، وفي سنة رسوله –صلى الله عليه وسلم –احترامه وتوقيره وتبجيله عن أبي بكرة، قال: سمعتُ رسول الله –صلى الله عليه وسلم –يقول: (مَن أكرم سلطان الله – تبارك وتعالى – في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة، ومَن أهان سلطان الله – تبارك وتعالى – في الدنيا أهانه الله يوم القيامة) (٣٩).عن زياد بن كُسَيب العدوي قال: "كنت مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر وهو يخطب،

وعليه ثياب رقاق، فقال أبو بلال: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفسَّاق، فقال أبو بكرة: اسكت، سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم –يقول: (من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله) (٤٠)

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم –: (إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسِط) (٤١).

رابعًا: التعاون معه على البر والتقوى

عملاً بقوله –تعالى –: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

خامسًا: الدعاء له

قال القاضي عياض: "لو أعلم أن لي دعوة مستجابة لجعلتها في الإمام"، وروي عن الإمام أحمد مثل ذلك. وعن عوف بن مالك، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم –قال: ((خيار أئمتكم الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، ويصلُّون عليكم وتصلُّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تُبغِضونهم ويُبغِضونكم، وتَلعَنونهم ويَلعَنونكم))، قيل: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: (لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدًا من طاعة) (٤٢)

سادسًا: الصبر على جوره إن جار أو ظلم: عن أم سلمة –رضي الله عنها –: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (ستكون أمراء، فتَعرِفون وتُنكِرون، فمن عَرَف بَرِئ، ومن أنكر سَلِم، ولكن من رَضِي وتابع)، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: (لا ما صلَّوْا) (٤٣).

عن زيد بن وهب قال: سمعت عبدالله قال: قال لنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم –: (إنكم سترون بعدي أثرةً، وأمورًا تنكرونها)، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: (أدُّوا إليهم حقَّهم، وسَلُوا الله حقَّكم) (٤٤).

سابعًا: عدم الخروج عليه: عن عوف بن مالك الأشجعي، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم –قال: ((خيار أئمتكم الذين تحبُّونهم ويحبُّونكم، ويصلُّون عليكم وتصلُّون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تُبغِضونهم ويُبغِضونكم، وتَلعنونهم ويَلعنونكم)، قيل: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف؟ فقال: (لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تَكرَهونه فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدًا من طاعة) (٤٥).

وعن عبادة بن الصامت قال: (بايعنا –أي: رسول الله –صلى الله عليه وسلم –على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان) (٤٦).

المطلب الثاني: حقوق الرعية على الراعي

أولاً: إقامة العدل بين الرعية: قال –تعالى–:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. يقول الله –تعالى–: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

كما أمر بالعدل في الصلح، فقال –تعالى–:﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم–في بدايتهم: (الإمام العادل). وفي مسند الإمام أحمد عن النبي –صلى الله عليه وسلم–أنه قال: (أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغضهم إليه إمام جائر) (٤٧). قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في ذلك: (إنما الإمام جُنَّة، يُقاتَل من ورائه ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعَدَل، فإن له بذلك أجرًا، وإن أمر بغيره، فإن عليه وزرًا) (٤٨).

ثانيًا: الحكم بشرع الله –تعالى

فالتحاكم لشرع الله فرضٌ قطعي بالكتاب والسنة والإجماع، قال –تعالى–: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

ثالثًا: النصح للرعية: فيعمل على جلب ما فيه النفع لهم، ودفع ما فيه الضرر، وليأخذ على أيدي الفاسدين المفسدين، من أصحاب الدعوات الهدامة، والعقائد الباطلة لمنع شرورهم، وحماية الأمة من فسادهم. وعليه فإقامة الدين، وحفظه، والدعوة إليه، ودفع الشبه عنه، وتنفيذ أحكامه وحدوده بالحكم بما أنزل الله بين الناس، والجهاد في سبيل الله –كل ذلك من واجبات إمام المسلمين وراعيهم.

رابعًا: الحلم والرفق بالرعية: ومن حقوقهم عليه أن يرفق بهم، ولا يشق عليهم، لقوله –صلى الله عليه وسلم–: كما في صحيح مسلم (اللهم من وَلِي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن وَلِي من أمر أمتي شيئًا فرَفَق بهم، فارفق به).

وقال –تعالى–: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

خامسًا: مشاورة أهل الرأي من الرعية

قال –تعالى–: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. قال –تعالى–: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لأبي بكر وعمر –رضي الله عنهما– ذات يوم: (لو اجتمعتما في مشورة، ما خالفتكما) (٤٩).

وقد أشار سلمان الفارسي –رضي الله عنه– على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بحفر الخندق، وأخذ النبي –صلى الله عليه وسلم– بها ونفذها، ولأنها قد نفذت في بلاد فارس، وكانت مُجدِية نافعة.

وكان أبو هريرة –رضي الله عنه– يقول: "ما رأيت أحدًا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله –صلى الله عليه وسلم" (٥٠)

سادسًا: تفقد أحوالهم وألا يحتجب عنهم

قال الله –تعالى–عن سليمان –عليه السلام–: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾[النمل: ٢٠]. وعن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–قال: "والله لو أن بغلة بالعراق تعثَّرت، لسُئلت عنها يوم القيامة"(٥١).

سابعًا: أخذ حق الضعيف من القوي

ومن حقوقهم عليه أن يأخذ الحق من غنيّهم لفقيرهم، لقوله –صلى الله عليه وسلم–لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: (إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادْعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم

أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرَد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائمَ أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب) (٥٢)

وفي خطبة أبي بكر الصديق، قال: "أما بعد أيها الناس، فإني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

لا يدع قوم الجهادَ في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"(٥٣).

ثامنًا: الدفاع عنهم

فإن الدفاع عن الرعية وأموالهم وأعراضهم من واجبات الإمام، لقوله –صلى الله عليه وسلم–: (كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته) (٥٤) .

ومن ذلك: حفظ الحدود والثغور، والأخذ بقوة لمن روَّع أمن الناس وأفزعهم، قال – تعالى﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٣).

تاسعًا: أن يختار الأشخاص الأكْفاء للعمل معه: قال الله –تعالى–: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. فينبغي توفر القوة والأمانة، وهما في الناس قليل، كان عمر –رضي الله عنه–يشكو من ذلك، ويقول: " اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة". وقال –صلى الله عليه وسلم–: (يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدَّى الذي عليه فيها) (٥٥).

عاشرًا: أن يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء: وهذا من العدل الذي أوجبه الله –تعالى–قال –سبحانه–: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

وعن عَدِي بن عَمِيرة الكندي، قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((مَن استعملناه منكم على عمل، فكتمَنا مِخْيطًا فما فوقه، كان غُلولاً يأتي به يوم القيامة))، قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار –كأني أنظر إليه–فقال: يا رسول الله، اقبَل عني عملك، قال: ((وما لك؟))، قال: سمعتك تقول كذا وكذا، قال: ((وأنا أقوله الآن: مَن استعملناه منكم على عمل، فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى) (٥٦).

حادي عشر: أن يكون قدوة في الخير للرعية: لأن الناس على دين أمرائهم، أي: يسيرون بسيرتهم، فعلى الحاكم أن يكون إمامًا في الحق والخير، قال الله –تعالى–حاكيًا دعوة الصالحين: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]. وقال الله –تعالى–: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

المطلب الثالث: مسؤولية التكاليف الشرعية

هذه المسؤولية هي أصل المسؤوليات بل كل المسؤوليات تندرج تحتها، وإنما أفردتها بالذكر هنا إجمالا بعد التفصيل، فالصلاة مسؤولية قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٦]، والصوم مسؤولية قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكذا سائر التشريعات.، إن من الملاحظ إهمال كثير من المسلمين لهذه المسؤوليات، فكثير ممن توفرت لهم القدرة على الحج لا يحجون، وكثير من المسلمين عن الصلاة يتشاغلون ولها يضيعون. كما نشهد كثيرا حالة الانتكاسة بين صفوف الملتزمين والتخلي عن مظاهر التدين وشعائره، وما ذاك إلا لفقدنا الإحساس بالمسؤولية، مسؤوليتنا تجاه الفرائض.

لقد استشعر السلف عظم مسؤولية التكاليف الشرعية، قال عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–: "ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادَى بين الرجلين حتى يُقام في الصف" (٥٧)، ولما نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، التزمت نساء الأنصار بهذا الحكم وطبقنه، فعن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة، فذكرنا نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلا، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقا بكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان"(٥٨). فأين كثير من نساء المسلمين ممن تخلين عن هذه المسؤولية الشرعية العظمى وخرجن متبرجات كأن آية الحجاب لم تنزل وكأن الله تعالى لم يأمرهن به.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠–٩١] فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: انتهينا انتهينا!!

فأين شبابنا الذين أدمن بعضهم على تناول بعض المخدرات من مثل هذه الهمة العالية في تحمل التكاليف الشرعية والقيام بها على أتم وجه وفي أسرع ما يكون.

فهذه بعض صور المسؤولية التي يجب مراعاتها والقيام بها وعدم التقصير فيها. إذا أديت ما عليك فلا عليك.

المطلب الرابع : المسؤولية بقد الطاقة والقدرة

كثير من الناس يحمل نفسه مسؤوليات لا يطيقها، ويلزم نفسه ما لا يلزمه به الله تعالى وفي هذا يقول الله تعالى:﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:٩١]. فقد كانت مهمة الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون أن ينصحوا لله ورسوله وقد فعلوا فلا حرج عليهم فوق ذلك ولا مسؤولية.

والخضر عليه السلام لما علم أن وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا لم يذهب لقتاله بل اكتفى بأن أحدث في السفينة ما يجعلها غير موافقة لمواصفات ذلك الظالم فتنجو من المصادرة قال الله تعالى مخبرا عنه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

غاية الأمر أن المسلم لا يحمل نفسه ما لا يطيق ففي هذا مشقة عليه وربما كانت آثار ذلك مضرة وتأتي بنتائج عكسية، فكثير من الشباب الذين حملهم الحماس إلى التغيير باليد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأيديهم ولم يكونوا من أهل التغيير بأيدي كانت نتائج أفعالهم مدمرة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(٥٩) فهذا بيان واضح بألا يتجاوز المسلم لأي سبب فيحمل نفسه من المسؤولية ما ليس له.

بَابُ بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ

وجاء ذكر المسؤولية في القرآن الكريم كثيرًا منوها على ذكر هذا المطلب فلا ينبغي أن يحمل الانسان نفسه مالا تحتمل قال جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا) [الأحزاب: ١٥]، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) [الأعراف: ٦]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣] . فها هو النبي صلى الله عليه وسلم يذكره الله تعالى بأن مهمته تقف عند البلاغ ولا مسؤولية عليه في إيمان أو كفر المدعويين فلا يشغل نفسه بما لا تقع مسؤوليته عليه.

المطلب الخامس: المسؤولية الكبرى

من أهم ما يحتاج إليه المسلمون في هذه المرحلة: الشعور بالمسؤولية، بل إن الشعور بالمسؤولية يجب أن يقوم في كل مسلم.

إننا نحتاج إلى أن يعرف كلُّ فردٍ منا واجبَه، ويدرِك أهمية قيامه به، ويؤدِّيه على أحسن وجه، وأن يهتم بشؤون إخوانه من أبناء أمته، ويسعى لما فيه مصلحتهم، ويُحِس في أعماق قلبه بهذه المسؤولية.

والمسؤولية بين يدي رب العالمين مسؤوليةٌ خطيرة، لأنه سبحانه: ﴿ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

إن أسباب التخلُّف في حياتنا كثيرة، ومن أهم هذه الأسباب ضعْفُ الشعور بالمسؤولية عند كثير من الناس، وفِقدانه عند آخرين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لو شعَر كل فرد بمسؤوليته وقام بواجبه، لاستقامت أمورنا على الجادة السويَّة، ولزالتْ معظم الشكاوى والمظالم والمشاكل.

انظر كيف ربط الله تعالى هذه الأمور بعضَها ببعض. يقول تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٧- ٢٨].

فسمَّى الانشغال بالمال والعيال عن مسؤولية الدين – خيانةً لله وللرسول. ثم صعَّد الأمر في سورة التغابن، حتى سمَّى هذه الشواغل أعداءً! وإنها لخيانة إذا كانت تلك الشواغل محبَّبة إلى النفس، فكيف بالمرء إذا كانت شواغله عن الدين أعداءً قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤- ١٥].

وإنها والله لأعداء إن كانت ستَشغلنا عن الغاية الكبرى والمسؤولية العظمى. إن المؤمن في هذا الزمان يحتاج لأن يَفهم أن تحمُّله مسؤوليةَ الدعوة إلى الله ونشْر منهج الله الحق – أمرُ فرضٍ وحتْمٍ ولزامٍ.

إن المؤمن في هذا الزمان ينبغي أن يفهم أن مسؤوليته تجاه الدين هي "مسؤولية استثنائية"، لا يجب أن يشغله عنها شاغلٌ، ولا أن يَسبقها عنده مسؤولية، ألم يقل الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]؟! نعم إنهم فاسقون. مَن اشتغل بالدنيا، فانشغل بها، وسبَقت إليه قبل آخرته، فإنهم قوم فاسقون خارجون عن منهج الله الحق.

المطلب السادس: أنواع المسؤولية في الشريعة الإسلامية:

المسؤولية الدّينيّة: وهي التزام المرء بأوامر الله ونواهيه، وقبوله في حال المخالفة لعقوبتها ومصدرها الدّين.

المسؤولية الاجتماعيّة: هي التزام المرء بقوانين المجتمع ونظمه وتقاليده.

وقيل: هي المسؤولية الذّاتيّة عن الجماعة، وتتكوّن من عناصر ثلاثة هي: الاهتمام والفهم والمشاركة [٦٠]

المسؤولية الأخلاقيّة: هي حالة تمنح المرء القدرة على تحمّل تبعات أعماله وآثارها، ومصدرها الضّمير [٦١].

وكلّ مسئوليّة قبلناها، وارتضينا الالتزام بها فهي مسئوليّة أخلاقيّة بدليل:

أنّ القرآن يقدّم المسؤولية الدّينيّة ذاتها في صورة أخلاقيّة محضة حين تحايل بعض النّاس على التّخلّص من بعض تعاليم الصّوم سرّا: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَعَفا عَنْكُمْ﴾ (البقرة/ ١٧٨).

أنّ القرآن لا يكتفي بتذكير النّاس في كثير من الأحيان بالأمر الإلهيّ، وإنّما يذكّرهم بالعهد الّذي قطعوه على أنفسهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الحديد/ ٨). وقوله تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ (المائدة/ ٧).

مدى شمولها:

قرّر القرآن أنّ شرط هذه المسؤولية الشّمول:

من ناحية الفرد يقول الله تعالى: ﴿ فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر/ ٩٢ ٩٣). " فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف/ ٦).

من ناحية الأعمال الخيّرة والشّريرة صغيرة وكبيرة.. ظاهرة وخفيّة قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة/ ٧– ٨).

من ناحية الأقوال والألفاظ سرّها ونجواها. يقول الله تعالى: ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق/ ١٨).

من ناحية السّمع والبصر والملكات: يقول تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا﴾ (الإسراء/ ٢٦).

من ناحية النّعيم والمال قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر/ ٨). وقال صلّى الله عليه وسلّم: «لا تزول قدما عبد حتّى يسأل عن عمره فيم أفناه. وعن شبابه فيم أبلاه. وعن علمه فيم عمل فيه. وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟».

المبحث الرابع: المسؤولية الجماعية الشريعة الإسلامية:

ورد المسؤولية في السنة النبوية على نحو ما وردت به في القرآن الكريم فقد صورت لنا الأحاديث النبوية أن المسؤولية لا يخلو منها مكلف، وأنها تشمل جميع مناحي الحياة، ونكتفي هنا بحديث واحد في هذا المطلب، أحاط بالمسؤولية من جوانبها وجلاها فعن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته"،

قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (٦٢).

قال ابن حجر –رحمه الله–: "قوله (كلكم راع) يعم جميع الناس فيدخل فيه المرعي أيضًا، فالجواب أنه مرعي باعتبار راع باعتبار، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعيًا لجوارحه وحواسه، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده" (٦٣).

فالمسؤولية أمر لا يخلو منه مكلف أبدًا، بل التكليف أصلا عبارة عن المسؤوليات، وهذا ما يقرره الحديث السابق.

إن تنمية المسؤولية الاجتماعية هي تنمية للجانب الخلقي الاجتماعي في شخصية المسلم، لا تنفصل عنه بل تتكامل معه، كما أنّ تنمية هذا الجانب الخلقي الاجتماعي ليس منفصلا عن تنمية الشّخصية المسلمة كلها بل تتكامل معه.

والمسؤولية لها مستويات ثلاثة مترابطة متكاملة، وهي:

المسؤولية الفردية الذاتية: وهي مسؤولية الفرد عن نفسه وعن عمله، وهذا المستوى أساسي يسبق المسؤولية الاجتماعية.

المسؤولية الجماعية: وهي مسؤولية الجماعة جماعيا، وبكاملها وككل من أعضائها وعن سلوكها، وهذا المستوى يدعم المسؤولية الاجتماعية، ويعززها.

المسؤولية الاجتماعية: وهي تعني: المسؤولية الفردية عن الجماعة، هي مسؤولية الفرد أمام ذاته عن الجماعة التي ينتمي إليها. (٦٤)

والشعور بالمسؤولية له أهمية كبيرة للفرد والمجتمع، "وكلما عظم الشعور بالمسؤولية لدى الأفراد، وعظم إدراكها في النفس، صلح أمر الفرد، وصلح المجتمع بصلاحه، ولذلك كان رقي الأمم مرتبطا بدقة هذا الشعور، وسمو الإدراك به عند أبنائها، ولاسيما عند الذين يتصدرون مراكز التوجيه، ويملكون أزِمّة الحكم، ويتولون مقاليد الأمور"(٦٥).

وأهم أركان المسؤولية الاجتماعية، هي مسؤولية الرعاية وهي نابعة من الاهتمام بالجماعة المسلمة، ومسؤولية الرعاية في السنة النبوية موزعة في الجماعة كلّها بلا استثناء، كلّ من في الجماعة راع، وكلّ من فيها مسؤول عن رعيته، لكل عضو في الجماعة نصيبه من مسؤولية الرعاية، في كلّ عمل يعمله وفي كل منشط من مناشط الحياة يؤدّي دوراً أو يحمل فيه تبعة.

والأصل في الرعاية الاجتماعية ما روي عن ابن عمر أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأميرُ الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، وعبد الرجل راع على مال سيده، وهو مسؤول عنه. ألا كلكم راع وكُلُّكم مسؤول عن رعيته) (٦٦).

وعنه –أيضا –، أنه سمع رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم–يقول: ((كلُّكُم راعٍ وكُلُّكم مسؤول عن رعيَّته، الإمام رَاعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيّته، والرَّجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، والخادمُ في مال سيِّده)) سمعتُ هؤلاء عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأحسبُ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((والرجل في مال أبيه)) (٦٧).

قال ابن بطال: "الراعي: هو الحافظ المؤتمن، الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، فكل من كان تحت نظره شيء فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته، فإن وفى ما عليه من الرعاية حصل له الحظ الأوفر والجزاء الأكبر، وإن كان غير ذلك طالبه كل أحد من رعيته بحقه"(٦٨).

وهذا الحديث النبوي جاء ليبين المنهج التربوي للمسؤولية عن كلّ فرد مهما كان دوره بسيطا، ومهما كان حجم هذه المسؤولية، فوضح الحديث أنّ كلّ إنسان راع في ما استرعى عليه، ومسؤول عما تحت يده من شؤون رعيته، وبذلك نصل إلى أصل من أصول التربية الإسلامية يتمثل في أنّ حياة المسلم قائمة على الشعور بالمسؤولية، ومن ثم أداء الحقوق والقيام بالواجبات، والحديث مليء بدروس تربوية في ما يتعلق بالمسؤولية الاجتماعية، ومن هذه الدروس التربوية النبوية في هذا الحديث: (٦٩).

أنه ليس هناك إنسان مسلم بالغ عاقل راشد إلا وهو مسؤول عن أمر من الأمور يديره ويتولاه، ولا بدّ له من رعية يرعاها ويُسأل عنها في الدنيا والآخرة. وهنا درس تربوي نبوي يربي المسلم على الشعور بالمسؤولية وعلى الاهتمام بشؤون من هم تحت مسؤوليته، وضرورة القيام بواجباتهم وحقوقهم، وفي ذلك تقرير للمسؤولية وتربية على الاهتمام بالأمور الشخصية والجماعية وحقوقهم.

أنّ كلّ مسلم راع ومسؤول مهما صغر شأنه أو قلّت مسؤوليته، فإنّ من لم تكن له رعية يرعاها ويهتم بها كان راعيا على نفسه وأعضائه وجوارحه وقواه وحواسه وكل ما وهبه الله، فلا يظنن أحد من الناس أنه خال من المسؤولية أو خارج عن نطاقها. وهنا درس نبوي يربي المسلم على ما يسمى بالرقابة الذاتية التي تجعل من الإنسان المسلم رقيبا على نفسه في جميع حركاته وسكناته، وأفعاله وأقواله، فإذا كان ذلك كذلك تحققت التربية الإسلامية المثالية التي تدعو إلى القول الجميل والفعل الحسن، والأداء المتقن، وكان المسلم بذلك أرعى النّاس على ما يؤتمن عليه ويناط به من مهام ومسؤوليات.

أن الإمام مسؤول اجتماعيا عن كل من تحت إمرته، ولذلك فعليه مسؤولية الاهتمام بهم ورعاية مصالحهم، والدفاع عن حقوقهم، والحفاظ على أمنهم بما شرعه الله من ضوابط لحماية المجتمع، كتطبيق الشريعة، وإقامة الحدود واتخاذ التدابير اللازمة لتوفير الأمن والأمان في المجتمع المسلم.

أنّ الرجل وهو ربّ الأسرة وراعيها مسؤول عن أفراد أسرته ومن تحت ولايته، فعليه أن يحسن رعايتهم، وأن يهتم بشؤونهم وتربيتهم التربية الصالحة، وعليه النفقة عليهم والحرص على تعليمهم وتأديبهم وتوفير ما يحتاجون إليه من

مسكن ومطعم ومشرب وملبس، وأن يعدل بينهم في المعاملة وأن يتقي الله في كلّ شأنهم فيكون عينا ساهرة تحرسهم من أيّ شيء قد يؤثر على دينهم أو دنياهم أو يفسد أخلاقهم.

إن للمرأة مسؤولية اجتماعية عظيمة تتمثل في رعاية الأسرة والحفاظ على بنائها وكيانها فهي مؤتمنة على تربية النشء وتوجيههم، والمحافظة على المال والممتلكات والعرض، وأن تؤدّي الحقوق الزوجية، وأن تكون عوناً له على أمر دينه ودنياه، وأن تحسن تدبير شؤون منزلها، ولذلك فإنّ مسؤوليتها عظيمة ومهمّتها جليلة فكان الواجب أن تتربّى على احترام هذه المسؤولية، وأن تعدّ لها إعداداً جيّداً.

أن الولد مسؤول عن أموال أبيه وأملاكه، ولذلك وجب عليه حفظها وتنميتها واستثمارها فيما أحلّ الله، وعدم صرف المال إلا فيما أمر الله به، وهذا درس نبوي يربّي الولد على حسن رعاية مال والده وعدم العبث به.

أن مسؤولية الرعاية قد تكون مسؤولية رعاية سياسية، ويمثلها الأمير الذي على النّاس، ومسؤولية رعاية اجتماعية، ويمثلها الرجل الذي يرعى أهل بيته، كما تمثّلها المرأة التي ترعي بيت زوجها وولده، كما قد تكون مسؤولية رعاية اقتصادية، ويمثلها العبد الذي يرعى مال سيده. (٧٠).

أن السنّة النبوية وهي تنشئ الفرد على الأخلاق القويمة، وتغرس في نفسه الفضائل والصفات الحميدة، وتقوي فيه الوازع الديني، تحمّله المسؤولية تجاه ربّه تعالى، ونفسه وأهله وأقاربه، وجيرانه والنّاس أجمعين، وكلّ ما يشاركه الحياة في هذه الأرض من حيوان ونبات وجماد، لأن الله تعالى جعل الإنسان خليفته في الأرض، وحمله "أمانة" لم يحملها لغيره. (٧١).

أن ما ورد في الحديث من أمثلة لا يراد بها الحصر بطبيعة الحال، وإنّما هي إشارة إلى شمول مسؤولية الرعاية أنشطة المجتمع ومستوياته وأفراده، فإذا كانت مسؤولية الرعاية موزعة على كل عضو من الجماعة بحيث يكون كل من فيه راع ومسؤول عن رعيته، فإنّها شاملة لكل جوانب المجتمع بلا استثناء.

الخاتمة (النتائج والتوصيات):

ركز البحث على إعادة اكتشاف موضوع متأصل في الشريعة الإسلامية، ألا وهو مفهوم المسؤولية الاجتماعية، وتم ربطه بالفكر التربوي، والهدف هو التأصيل الشرعي والعلمي في آن واحد لهذا المفهوم من منطلق إسلامي، ومن خلال ما سبق في البحث، خلصنا إلى النتائج التالية:

مصطلح (المسؤولية) لفظ مستحدث لم تتداوله الألسنة إلا في زمن قريب غير بعيد، مما يستدعي كثير ممن يدرس كتب الشريعة الإسلامية، من التفسير والحديث والفقه وفروعها، دراسة عميقة مستفيضة لهذا المصطلح، بل إن أكثر ما تستعمل هذه الكلمة (المسؤولية) في وضع يشعر المسئول بشيء من القلق.

المسؤولية هي: شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئول عنه أمام ربه ﷻ حينما يفرط في القيام به، ويتساهل في أدائه على الوجه الذي يستطيعه.

عند القانونيين المسؤولية قسمان:

أ. **المسؤولية التعاقدية:** وهي ضمان الضرر الناشئ عن الإخلال بعقد.

ب. المسؤولية التقصيرية: وهي ضمان الضرر الناشئ عن الفعل الضار.

• **اللاَّ مسئوليَّة:** شعور المرء بأنه غير ملزَم بعواقب أعماله.

المسؤولية في الإسلام تعني أن المسلم المكلف مسئول عن كل شيء جعل الشرع له سلطاناً عليه أو قدرة على التصرف فيه بأي وجه من الوجوه، سواء كانت مسئولية شخصية فردية، أم مسئولية متعددة جماعية.

الشعور بالمسؤولية هو إخلاص دائب في أداء الواجب، وحياة للضمير في مراقبة الله تعالى، وسعي أكيد لتطوير ذلك الأداء وهو الأمر الذي ينبغي أن يحققه كل مواطن مهما كانت درجة مسئوليته

المسؤولية في الإسلام منوطة بكل مسلم بالغ عاقل فهي مسئولية شخصية اجتماعية دينية وعلمية غير أنها جميعاً مسئولية أخلاقية لأن الأخلاق في الإسلام من الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن جعل الإنسان اجتماعياً بالضرورة أو كما قيل مدني بالطبع، مما أدى إلى اجتماع الناس بعضهم على بعض وتكوين مجتمعات بشرية.

لقد أحكم القرآن الكريم ضبط المسؤولية في الإسلام، وبين أن كل نفس بما كسبت رهينة، وأنه لا يحمل الإنسان إلا تبعة أعماله.

أول شرط من شروط المسؤولية في القرآن: بلوغ الدعوة وثانيها: أهلية المبلغ (المسئول).

حقوق الراعي على الرعية: بيعته على الطاعة في المعروف، بذل النصح له ثالثًا: توقيره، وإجلاله، واحترامه، التعاون معه على البر والتقوى الدعاء له، الصبر على جوره إن جار أو ظلم، عدم الخروج عليه.

حقوق الرعية على الراعي

إقامة العدل بين الرعية والحكم بشرع الله –تعالى–والنصح للرعية: والحلم والرفق بالرعية: ومشاورة أهل الرأي من الرعية وتفقد أحوالهم وألا يحتجب عنهم، وأخذ حق الضعيف من القوي، والدفاع عنهم، وأن يختار الأشخاص الأكفاء للعمل معه، وأن يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء، وأن يكون قدوة في الخير للرعية.

كثير من الناس يحمل نفسه مسؤوليات لا يطيقها، ويلزم نفسه ما لا يلزمه به الله تعالى.

من أنواع المسئوليات: المسؤولية الدّينيّة، المسؤولية الاجتماعيّة، المسؤولية الأخلاقيّة.

المسؤولية لها مستويات ثلاثة مترابطة متكاملة، وهي: المسؤولية الفردية الذاتية. المسؤولية الجماعية: المسؤولية الاجتماعية.

الشعور بالمسؤولية له أهمية كبيرة للفرد والمجتمع، "وكلما عظم الشعور بالمسؤولية لدى الأفراد، وعظم إدراكها في النفس، صلح أمر الفرد، وصلح المجتمع بصلاحه.

أداء المسؤولية الاجتماعية في الإسلام واجب ديني وفضيلة إسلامية سبق الإسلام بها الأفكار والنظم المعاصرة، وواجب المسلمين أداء هذه المسؤولية استجابة لأمر الله عز وجل ولأمر رسوله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون تقليدا أو تنفيذا لاتفاق عالمي أو دعوات من نظم مستوردة.

مبادئ المسؤولية الاجتماعية متأصلة في الإسلام من خلال آيات قرآنية وأحاديث شريفة وقواعد فقهية، وليست مستحدثة كما في الأنظمة الوضعية.

حث التشريع الإسلامي على أداء المسؤولية الاجتماعية ونظم كيفية هذا الأداء من خلال أساليب محددة بدقة مثل: فقه الزكاة وفقه الوقف والحقوق الواجبة للعمال والإحسان والسماحة مع العملاء والموردين والصدقات وغيرها.

أداء المسؤولية الاجتماعية واجب على المسلم لصحة العقيدة، ولا يهدف المسلم من ورائها إلى أي مكسب مادي، إنما رضا الله هو غايته الأولى والأخيرة.

المسؤولية الاجتماعية في الإسلام تتعدى العمل الخيري والتطوعي أو الهبات المالية إلى بناء المساجد والمراكز التعليمية والصحة وكفالة الأيتام والأرامل ورعاية المسنين، والحفاظ على حقوق الأجراء، وكذا حماية الموارد الطبيعية والحفاظ على البيئة من مختلف أشكال الفساد، والمشاركة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

تتميز المسؤولية الاجتماعية في الإسلام بنظرة شمولية، فهي لا تركز على النواحي المادية فقط كما هو الحال بالنسبة للأنظمة المادية الوضعية، إنما تشمل سائر المناحي الأدبية والروحية من حب وتعاطف وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

وختاما نعرض مجموعة من التوصيات للمضي قدما في إثراء هذا الموضوع:

ـ دعوة الباحثين والمفكرين إلى البحث والدراسة في هذا المفهوم من أجل تطويره والإعلام عنه وتعريف المسلمين بمبادئه وخصائصه.

ـ دعوة الفقهاء إلى التأصيل الشرعي لهذا المفهوم، من أجل أن ينال الاهتمام الذي يستحق من طرف المسلم.

ـ دعوة العلماء المسلمين إلى ضرورة المشاركة في البرامج الاجتماعية بروح إسلامية وطرح هذا الموضوع بإلحاح على الساحة الاقتصادية والاجتماعية العالمية من أجل تعميق النظرة الإسلامية وتفعيلها في واقع العمل الاجتماعي للأمة.

ـ يجب أن تعتبر منظمات الأعمال في المجتمعات الإسلامية أن دافع قيامها بالمسؤولية الاجتماعية ليس لمجرد الاستجابة للضغوطات من المجتمع ومن المنظمات غير الحكومية، إنما هو واجب ديني متأصل في الشريعة الإسلامية، و هي مطالبة بأدائه رغبة في رضا الله عز و جل.

ـ الارتكاز على أساليب التكافل الاجتماعي و أخلاقيات العمل الإسلامي التي وردت في التشريع الإسلامي لأداء المسؤوليات الاجتماعية والسياسية تجاه مختلف أصحاب المصالح.

ـ صياغة نظرية عن المسؤولية العامة والخاصة لدعم الفكر الإسلامي في ظل توفر كل أركانها الصحيحة، و نشر هذا الفكر الذي يؤكد أن الإسلام شريعة خالدة متوافقة مع متطلبات الحياة الإنسانية و الاجتماعية والسياسية.

الهوامش

(١) معنى المصدر الصناعي: كون الشيئ منسوبا إلى أصل الفعل كالحرية والرفاهية ونحوهما، ويصاغ بإضافة ياء مشددة تليها تاء مربوطة.

(٢) مختار الصحاح ص (٢٨١) مادة س أ ل، دار الجيل، بيروت ١٤٠٧هـ.

(٣) معجم لغة الفقهاء لقلعه جي ص (٤٢٥)، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

(٤) المصدر السابق ؛ وانظر القانون المدني المصري المواد (١٧٦، ١٧٧، ١٧٨)، والتشريع الجنائي الإسلامي لعبد القادر عودة (٣٩٢/١) الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ.

(٥) للاستزادة انظر: الوسيط في شرح القانون المدني للسنهوري (١٠٥٢/١) طبع سنة ١٩٥٢م.

(٦) انظر: المفردات للراغب ص(٢٥٠)، والصحاح ٥/ ١٧٢٣، والنهاية لابن الأثير ٢/ ٣٢٨، ولسان العرب (سأل) ٣/ ١٩٠٦) ط. دار المعارف.

(٧) انظر: المعجم الوسيط ١/ ٤١٣، والمنجد ص(٣١٦)، ومحيط المحيط ص(٣٩٠).

(٨) انظر: دستور الأخلاق في القرآن ص (١٣٨).

(٩) انظر: معجم لغة الفقهاء لمحمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ٤٢٥/١.

(١٠) انظر: انظر: علم الأخلاق– النظرية والتطبيق (١٤١).

(١١) انظر: أصول السرخسي: ٣٤٠/٢.

(١٢) أخرجه أبو داود، ٥٤٤/٢، (٤٣٩٨)، والترمذي، ٣٢/٤، (١٤٢٣)، والنسائي: ١٥٦/٦،(٣٤٣٢)، وصححه الألباني.

(١٣) أخرجه أحمد في مسند هـ ط الرسالة (٣٠/ ٣٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير من جـ ٢١ (٥٠/٢١).

(١٤) أخرجه البخاري في صحيحة (٢/ ٥)، بَابُ الجُمُعَةِ فِي القُرَى وَالمُدُنِ.، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٤٥٨) بَابُ فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ، وَالْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَالنَّهْيِ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ.

(١٥) دروس للشيخ ابن جبرين (١/ ٢، بترقيم الشاملة آليا).

(١٦) أخرجه البخاري في صحيحه بَابُ الجُمُعَةِ فِي القُرَى وَالمُدُنِ ٥/٢، ط. دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى،

١٤٢٢هـ.

(١٧) أخرجه مسلم في صحيحه بَابُ مَنْ لَقِيَ اللهَ بِالْإِيمَانِ وَهُو غَيْرُ شَاكٍّ فِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَحُرِّمَ عَلَى النَّارِ ١/ ٥٨.

(١٨) أخرجه أبو داود في سننه بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ ٤/ ٢٥٣، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

(١٩) قال الألباني في دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ١/ ٣٢. هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت وهو عند ابن هشام معضل وقد ضعفه الحافظ العراقي كما بينته في (تخريج فقه السيرة) (ص ٤١٥).

(٢٠) أخرجه البخاري في صحيحه بَابٌ: لاَ يَظْلِمُ المسْلِمُ المسْلِمَ وَلاَ يُسْلِمُهُ ٣/ ١٢٨، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر

(٢١) الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢٢) أخرجه الترمذي في سننه بَابٌ فِي فَضْلِ مَكَّةَ ٥/ ٧٢٣، تحقيق وتعليق: أحمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ٢/ ٨٢٨.

(٢٣) أخرجه مسلم في صحيحه، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ ٤/ ١٩٩٩.

(٢٤) هذا ن البيتان للشاعر اليمني الأفوه الأودي شاعر جاهلي عُرف بالحكمة والقول السديد.. اسمه صلاةُ بن عمرو بن مالك.. والأفوه من كبار قدماء الشعراء في العهد الجاهلي، وكان سيد قومه... يعملون برأيه ولا يخرجون عن مشورته وهو أحد حكماء العرب المعدودين. انظر موقع الوطن:

http://alwatan.kuwait.tt/articledetails.aspx?Id=137090.

(٢٥) انظر: جامع البيان للطبري٢٧/٧٠.

(٢٦) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله. وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى.... (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به) فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه) والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) الآية، والعلم الذي ينشره في الناس فاقتدى به

الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله. انظر: تفسيره في ٢٥٨/٤.

(٢٧) انظر: في ظلال القرآن ٦٩٢/٦.

(٢٨) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ٢٦٠/٤.

(٢٩) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن ٣٤٢/٢٠، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٣٠) انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري: ١٥٦/١٢.

(٣١) انظر: مصنف عبدالرَّزَّاق (١١ / ٣٣٦).

(٣٢) أخرجه البخاري، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الدِّينُ النَّصِيحَةُ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ " ١/ ٢١، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ، ومسلم بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ ١/ ٧٤، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت برقم (٥٥).

(٣٣) انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد بن عبد الباقي بن صالح بن محمد (المتوفى: ١٣٨٨هـ) باب بيان أن الدين النصيحة ١/ ١٢. الناشر: دار إحياء الكتب العربية - محمد الحلبي (بدون طبعة وبدون تاريخ).

(٣٤) أخرجه البخاري في صحيحه بَابٌ: المَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ ٨/ ١٢٥.

(٣٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢١/ ٦٠، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

(٣٦) أخرجه الترمذي في سننه بَابُ مَا جَاءَ فِي مَعِيشَةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٤/ ٥٨٣.

(٣٧) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص٨٠).

(٣٨) أخرجه مسلم في صحيحه بَابُ النَّهْيِ عَنْ كَثْرَةِ الْمَسَائِلِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَالنَّهْيِ عَنْ مَنْعٍ وَهَاتِ، وَهُوَ الِامْتِنَاعُ مِنْ أَدَاءِ حَقٍّ لَزِمَهُ، أَوْ طَلَبِ مَا لَا يَسْتَحِقُّهُ ٣/ ١٣٤٠. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي — بيروت.

(٣٩) أخرجه الامام أحمد في مسنده ٧٩/٣٤، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة.

(٤٠) أخرجه الترمذي في جامعه ٤/ ٥٠٢، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

(٤١) أخرجه أبو داود في سننه بَابٌ فِي تَنْزِيلِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ ٤ / ٢٦١، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ٣/ ١٣٨٨.

(٤٢) أخرجه مسلم في صحيحه بَابُ خِيَارِ الْأَئِمَّةِ وَشِرَارِهِمْ ٣/ ١٤٨١.

(٤٣) أخرجه مسلم في صحيحه بَابُ وُجُوبِ الْإِنْكَارِ عَلَى الْأُمَرَاءِ فِيمَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ، وَتَرْكِ قِتَالِهِمْ مَا صَلَّوْا، وَنَحْوِ ذَلِكَ ٣/ ١٤٨٠.-

(٤٤) أخرجه البخاري في صحيحه بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا» ٩/ ٤٧.

(٤٥) أخرجه مسلم في صحيحه بَابُ خِيَارِ الْأَئِمَّةِ وَشِرَارِهِمْ ٣/ ١٤٨١.

(٤٦) أخرجه البخاري في صحيحه بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا» ٩/ ٤٧.

(٤٧) انظر مسند الامام أحمد ١٧/ ٢٦٤.

(٤٨) أخرجه البخاري في صحيحه بَابُ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَاءِ الإِمَامِ وَيُتَّقَى بِهِ ٤/ ٥٠.

(٤٩) أخرجه الامام أحمد في مسنده ٢٩/ ٥١٨.

(٥٠) أخرجه الامام أحمد في مسنده ٣١/ ٢٠٤، ورواه عبدالرزاق في مصنفه باب غزوة تبوك ٥/ ٣٣٠.

(٥١) انظر: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ٢ /٦٢١، ليوسف بن حسن بن عبد الهادي المبرد (المتوفى: ٩٠٩هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م.

(٥٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٢٨/٢. بَابُ أَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ وَتُرَدَّ فِي الفُقَرَاءِ حَيْثُ كَانُوا

(٥٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام٢/ ٦٦١، وابن هشام هو: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م.

أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ٥ بَابُ الجُمُعَةِ فِي القُرَى وَالمُدُنِ.

(٥٥) أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٥٧/٣،بَابُ كَرَاهَةِ الْإِمَارَةِ بِغَيْرِ ضَرُورَةٍ .

(٥٦) أخرجه مسلم. في صحيحه ٣/ ١٤٦٣.بَابُ تَحْرِيمِ هَدَايَا الْعُمَّال.

(٥٧) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤٥٣/١، بَابُ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى.

(٥٨) انظر: تفسير القرآن العظيم٦/ ٤٦، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

(٥٩) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ٦٩، بَابُ بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبَانِ.

(٦٠) انظر: أصول الفكر التربوي في الإسلام لعباس محجوب،، ص: ١٢٨.

(٦١) انظر: علم الأخلاق الإسلامية لمقداد يالجن،، ص:٢٥٢.

(٦٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣/ ١٥٠ بَابٌ: العَبْدُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، ومسلم في صحيحه ١٤٥٩/٣، بَابُ فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ، وَالْحَثِّ عَلَى الرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ وَالنَّهْيِ عَنْ إِدْخَالِ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمْ.

انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري فتح الباري لابن رجب (٨/ ١٣٧) باب الجمعة في القرى والمدن لزين الدين عبد

الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود.

(٦٤) انظر: المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة، لسيد أحمد عثمان، دراسة نفسية تربوية، ص:٤٣.

(٦٥) انظر: من المسؤول عن تربية النشء، لأحمد محمد أحمد، مجلة الوعي الإسلامي، العدد(١٦٨)، السنة الرابعة عشرة، ذو الحجة (١٣٩٨هـ)، (ص: ١٠٣).

(٦٦) أخرجه البخاري، في صحيحه، ٣/ ١٥٠، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، ومسلم في الصحيح،، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم الحديث: (٤٧٢٤).

(٦٧) انظر: المرجع السابق. صححه البخاري في الأدب المفرد، باب المرأة راعية، برقم: (٢١٤). ص: ٨٢.

(٦٨) انظر: عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للعيني،: ١٩٠/١٦.

(٦٩) انظر: دروس تربوية نبوية لصالح أبو عراد الشهري، ص: ٧٩ – ٨٤.

(٧٠) انظر: المسؤولية الاجتماعية دراسة نفسية اجتماعية، لسيد أحمد عثمان، ص: ١٢٩ – ١٤٤.

(٧١) انظر: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية ـ عبد الحميد الزنتاني،، ص: ٦٧٠.

المصادر والمراجع:

ـ خلاصة فن الإملاء للسيد محمد هاشم مجاهد ص ٦ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦هـ. وقواعد الإملاء لعبد السلام هارون، مكتبة الأنجلو ١٩٨٥م.

ـ مختار الصحاح، دار الجيل، بيروت ١٤٠٧هـ.

ـ معجم لغة الفقهاء لقلعه جي، دار النفائس، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

ـ القانون المدني المصري المواد (١٧٦، ١٧٧، ١٧٨)، والتشريع الجنائي الإسلامي لعبد القادر عودة (الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ.

ـ الوسيط في شرح القانون المدني للسنهوري طبع سنة ١٩٥٢م.

ــ المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ). تحقيق صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية –دمشق بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري بن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: المكتبة العلمية –بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوى –محمود محمد الطناحي.

ــ لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر –بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

ـ المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة(إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة.

ــ دستور الأخلاق في القرآن .

ـ معجم لغة الفقهاء لمحمد رواس قلعجي –حامد صادق قنيبي الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

ــ دروس تربوية نبوية لصالح أبو عراد الشهري.

ـ أصول السرخسي لمحمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت.

ــ سنن أبي داود ، لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) المحقق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قرة بللي الناشر: دار الرسالة العالمية الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

ـ سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر
الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ -١٩٧٥ م.

ـ المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية -حلب الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦ .

ــ المعجم الوسيط: لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة .

ـ صحيح البخاري، ط. دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

ــ صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت في صحيحه بَابُ مَنْ لَقِيَ اللهَ بِالْإِيمَانِ وَهُو غَيْرُ شَاكٍّ فِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَحُرِّمَ عَلَى النَّارِ.

ـ سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

ـ تخريج فقه السيرة للألباني.

ـ مشكاة المصابيح، لمحمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ) تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي -بيروت الطبعة: الثالثة.

ـ موقع الوطن: (http://alwatan.kuwait.tt/articledetails.aspx?Id=137090) .

ــ جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م ـ تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة،الناشردار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.ـ في ظلال القرآن، لسيد

قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ

ــ أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية لعبد الحميد الزنتاني.

ـ المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: المجلس العلمي–الهند

ــ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان لمحمد فؤاد بن عبد الباقي بن صالح بن محمد (المتوفى: ١٣٨٨هـ) باب بيان أن الدين النصيحة ١/ ١٢. الناشر: دار إحياء الكتب العربية –محمد الحلبي (بدون طبعة وبدون تاريخ).

ــ المسؤولية الاجتماعية دراسة نفسية اجتماعية، لسيد أحمد عثمان.

ـ مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ابن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط –إبراهيم باجس الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

ــ السيرة النبوية لابن هشام، وابن هشام هو: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م.

ــ أصول الفكر التربوي في الإسلام لعباس محجوب.

ــ علم الأخلاق الإسلامية لمقداد يالجن.

ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود.

ـ المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة، لسيد أحمد عثمان، دراسة نفسية تربوية.

ـ من المسؤول عن تربية النشء، لأحمد محمد أحمد، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (١٦٨)، السنة الرابعة عشرة، ذو الحجة (١٣٩٨هـ).

ـ الأدب المفرد بالتعليقات لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ) حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري مستفيدًا من تخريجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث: محمد ناصر الدين الألباني الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨ م.

ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري المؤلف: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

Responsibility: Individual Concept and Social Nature
An Islamic perspective

Dr. Ahmed Rizq Rizq Alsurmi, Prof. of Islamic Culture

Abstract

In this research, the researcher follows the inductive analytical approach. He tries to explain the concept of responsibility as one having philosophical, moral and legitimate dimensions, on the one hand, and as having individual, human and social importance, on the other hand. The previous studies, be they religious, philosophical, intellectual and moral, includes a number of moral values, both as individual and social, in all the eras of human civilization, beginning with Buddhism, Greek, Torah and ancient religious books and philosophies, followed by the Holy Qur'an, the book of the philosophy of Islam and ending with the modern Western philosophies, resulting in descriptive laws and relevant legislations in general, and those relating to responsibility in particular.